طیف انسان

طيف انسان

روايـــة

لمياء أحمد عثمان

طيف انسان

اسم الكاتب: لمياء أحمد عثمان

تدقيق لغوي: جمال مطر

تصميم الغلاف: أسامة محمد

الإخراج الفنيّ: جمال مطر

الطبعة / الأولـى – ٢٠١٩ م

رقم الإيداع: 2019 / 15080

الترقيم الدولي: 978-977-835-128-6

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى من يتظاهر بفهم كل شيء من حوله...

إلى من ضاقت عليه الحياة فجعلت منه حطام إنسان...

إلى كل من يستهين بمشاعر الصغار...

المقدمة

قد تشعل كلمة نيران انطفأت منذ زمن بعيد تجعلك تفكر ألف مرة قبل أن تتفوه بكلمة واحدة.

كل منا يسعى لتربية أبنائه تربية مثالية لكننا نفشل بجدارة ونتعرقل فنغير كل الخطط ونتغاضى عن مثاليتنا لنعيش مع الواقع ونجاري الحياة إما أن نفقد لذة وجود أبنائنا ويغرقون ببحر الحياة أو نأخذ بأيديهم إلى بر الأمان.

الفصل الأول

إلى أين ستأخذني الحياة؟

لست أدري... كل ما أعلمه أني أصبحت حطام إنسان انهدمت أحلامه فسقطت فوق رأسه... ضعيف أنا أشعر بالدونية...

لا أحد يهتم بشأني...

منهك مما فعلته بحالي، يهيمن على عقلي الانتحار، يحاوطني الفراق... فارقت كل شيء، كل شخص.. حتى جسدي أخشى أن يفارقني... سيفارقني حتمًا إذا لم أرتد على ما أفعله...

مررت بالكثير من الأحداث بحياتي فازدحمت رأسي وضعفت شخصيتي، لم أتلق اهتمامًا من أحدهم.. جميعهم فقط يدللونني، كل ما أريده واجب التنفيذ فورًا.. كم كنت سعيدًا بهم وطلباتي مجابة وكأنها أوامر ينفذونها دون جدال، لم أعلم أنني لم أجنِ سوى على حالي.. كانت طفولتي جميلة يتمنى كل طفل أن يعيشها مدللًا عن إخوتي فأنا الابن الأصغر لأبي.. طالما شعر إخوتي بالغيرة من معاملة أبي وأمي معي فاتفقوا على تحطيم شخصيتي..

دائمًا ما يقولون لست أخانا بل وجدناك أمام المسجد ماذا عن طفل يعيش مع الشك يتخلل شخصيته، ينهش ذاكرته وكأنه يعتصر عقله كي يتذكر طفولته؟ هل لي أن أتذكر يوم ولادتي؟ محال إن أتذكر أعلم أنكم ترون الأمر غاية في البساطة لكنني أراه كارثة كبيرة.. كلما رأيت رجلًا يحنو عليّ ظننته أبي.. بدأت أفكر من يشبهني بالعائلة، لم أجد سوى عمي.. هل من الممكن أن يكون هو أبي؟ ذهبت إليه، جلست جواره طيلة اليوم فأتى إليّ بقطعة من الحلوى اللذيذة ونظر إليّ بحنان يكفي الكون.

عمي وهو يعبث بشعري:

-تعلم أنني أحبك أكثر شخص بهذه الأسرة.. تشبهني كثيرًا

نظرت بالمرآة التي تقع جوار باب الشقة.. نعم إنها نفس الأعين العسلية والبشرة الخمرية والشعر الذهبي المنسدل على الوجه وكأني قطعة انفصلت منه..

دب الشك بقلبي، عدت للمنزل أنظر لأمي البيضاء وعينيها السمراء.. لا لستِ أمي لكنكِ تحسنين معاملتي كونكِ امرأة حنون فالحنان ينبع من حروف اسمكِ.. (حنان) هو اسم أمي وكل حرف من اسمها ينطق ويشهد بعشقي لها وحنانها الذي يسع الكون.. أعطتني كوبًا من الشاي المضاف إليه الحليب، رفضت أن أشربه، جلست جواري

أمي بدلال: ماذا بك حموزي؟

حمزة رافعًا شفتيه لأعلى: لا شيء، لا أريد أن أشرب شيئًا

استكملت تحضير أوراق الملوخية لتعد لنا الغداء لتحضر وجبتي المفضلة ملفوف ورق العنب مع الملوخية والدجاج المشوي.. دق الباب ولأول مرة لم أهلل "جاء أبي جاء أبي" فتحت تاليا الباب

بابا بلهفة: أين حموزي حبيبي؟

وجدني أجلس جوار النافذة البيضاء القديمة المتهالكة واضعًا قدميّ داخل ملابسي من شدة البرودة فسألني بشغف وهو يقبل يدي بحب:

- ماذا بحبيبي؟

حمزة عاقدًا يديه: - لا شيء أبي.. لا شيء

ماما بصوت موسيقي: الغداء جاهز تفضلوا

حمزة وهو يخبط قدميه بالأرض:- لست جائعًا

دخل معي غرفتي وربت على أكتافي، بدأ يتحدث معي كثيرًا ويروي حكايته الجميلة عن الحصان القديم الذي أهداه إليه جدي وباعه هو ليبتاع بعض الكتب ويستكمل دراسته.. واستكمل حديثه عن كفاحه وحبه للحياة.. لم يصل إلى شيء لم يعرف سبب غضبي فدخلت أمي الغرفة

بابا: تفضلي حنان

ماما: حمزة حبيبي سيأكل كي لا أغضب منه

وبعد جدل كبير وافقت أن آكل.. مر يوم وراء يوم وكل يوم أتوجه لبيت عمي لأجلس جواره نشاهد الأفلام الأجنبية، جاء عمي إلى بيتنا ليتناول الغداء معنا، جلست على قدمه وعيناي تلتف حول الجميع ونظرات الشك تحاوطهم والأسئلة تحاوطني فأخي يشبه أمي، أختي تشبه أبي كثيرًا لماذا لا أشبههما؟ هل حقًا عمي أدهم هو أبي؟ لماذا ألقاني لأخيه ليستكمل تربيتي؟ ماذا عن أمي؟ هل هي أمي؟ أم اتخذتني ابنًا لها؟ ما سر حبهما الشديد لي وتمييزي عن إخوتي؟ وكل يوم تعاد الكرة من جديد حتى عادت أيام الدراسة وبعد أن لاحظت أن عمي لم ينجب منذ أن تزوج وبدأت شكوكي أن تتنحى عن الحقيقة.. لو كان أبي لأنجب أطفالًا كُثر يعيشون معه.. وبعد فترة راودني الشك من جديد فجاء معلمي الذي يشبهني أيضًا.. بت أشك أنه أبي فذهبت إليه فتحدث بلطف:

_حمزة أنت ولد جميل وأنا أحترمك جدًا

حمزة رافعًا حاجبيه لأعلى:

- أنا أيضًا أحبك وأريد أن أسألك سؤالًا

المعلم بفضول: اسأل حبيبي

جريت بسرعة وعدت لفصلي متهربًا منه.. كلما تلاقت أعيننا تنبض مقلتاها بالتعجب حتى تحدثت مع حالي وقررت أن أقابل والدي بمعلمي عماد ومن المواجهة سأعلم هل حقًا هذا أبي؟ أراقب نظرات أمي هل

ستخشى خسارتي حين أراه؟ فذهبت لغرفة المدرسين باحثًا عنه، لم أجده.. انتظرته على الأريكة الخشبية المحطمة المتسخة.. جلست طويلًا حتى اتسخ بنطال المدرسة البني والقميص الأبيض وحين رأيته من بعيد هرولت إليه وأنفاسي تتسارع:

يا أستاذ عماد... أريد أن آخذ درسًا خصوصيًا فدرجاتي هذا الشهر دون المستوى

المعلم بلا مبالاة:

- ليس لديّ مانع... تفضل رقمي واطلب من والدك الاتصال بي لنحدد موعد الحصة الأولى...

عدت للمنزل وأنا في غاية السعادة، شعرت لأول مرة أنني أتصرف بدهاء... شممت رائحة العدس وأنا على سلالم منزلنا المحطمة... تعلم أمي أنني لا أحبه، لن أبالي.. نعم أنا سعيد..

انتظرت أبي حتى عاد وذهبت مع تاليا إلى المطبخ أتناول أطباق شوربة العدس والبصل الأخضر مع الخبز أكلت بنهم وسعادة على غير عادتي حين أجد الطعام عدس

نظرات غريبة من الجميع وضحكات خبيثة من تاليا ومؤمن حتى أنهيت الطعام وطلبت من والدي أن يدخل غرفتي ورائي.. ضحك الجميع حين وضعت يدي بجيب معطفي ونظرت للخلف أطلب من أبي أن يغلق الباب وراءه لم أهتم بشأنهم

_ مستواي الدراسي أقل من زملائي أبي

تحدثت بانكسار فأجابني والدي رافعًا حاجبيه:

_ هل تريد أن تأخذ دروسًا خصوصية؟

حمزة وكأنه للتو وجد طوقًا للنجاة: نعم أبي أعلم أن هذه ليست مبادئك لكني مضطر فقط في اللغة الإنجليزية

الأب وهو يحرك رأسه مشيرًا بالموافقة:

-سأرسل والدتك معك إلى المدرسة كي تتحدث مع المعلم

حمزة بتردد وخوف:

-لا رقم هاتف معلمي معي سأعطيه لك وتحدد موعد أول حصة

-أوامرك مجابة حمزتي.

وحدد أبي أول موعد للدرس يوم الجمعة وجاءت الرياح بما لا تشتهي نفسي.. صدمت مما حدث حقًا، ليتني ما طلبت حضوره لمنزلنا

في يوم الجمعة هندمت والدتي المنزل وعطرته استعدادًا للدرس، وقفت على بداية الشارع لأصطحبه معي..

مددت يدي للأمام وأنا أقول: تفضل أستاذي

سقطت الأكواب من يد والدتي حين رأته، حدقت عيناها وفتحت فمها جاء والدي على صوت الأكواب المفتتة ليكمل مثلث الاندهاش.. نظر لأستاذي بغضب فسرعان ما هرب من المنزل! نعم هرب.. جرى بعيدًا حيث لن تراه عيناي.. خرجت تاليا من الغرفة تدندن بصوتها العذب وبحبك والله بحبك والله والله والله بح ثم صمتت تمامًا وبتعجب قالت:

_ماذا بكم؟ أين المعلم؟

_حمزة ماذا بك حمزتي

فدفعتها بعيدًا.. ليس هذا وقت للمزاح.. ظريفة هي انتظرت حتى يتحدث أحدهما لكن دون داعي الصمت ساد أرجاء الشقة فإذا سقطت إبرة تستطيع أن تسمع رنينها.

عدت لغرفتي متمنيًا أن تنشق الأرض وتبتلعني ولأول مرة تهتم تاليا لأمري.. دق باب الغرفة فكفكفت دمعي وتمالكت نفسي.. نظرت للمرآة لأرى آثار البكاء.. أمسكت منديلًا لأضعه على أنفي الأحمر وبكل هدوء قلت: من يطرق الباب؟

أجابت بحنان على غير عادتها: أنا تاليا

أخذتني بين ذراعيها متحدثة بجدية كبيرة:

_من المؤكد هناك سر وراء غضبهم جميعًا وسأساعدك لنعرفه

قالتها تاليا فأجاب حمزة: كيف سنعرف؟ فالجميع بحالة ذهول

سوف أهرب من محاضرتي الثانية وآتي معك للمدرسة وأتحدث مع عماد

وضعنا خطة كبيرة لنوقع عماد في خانة الشك وينطق بالحقيقة.. لم أتمالك حالي من الشعور بالارتياح فصعدت فوق خزانة الثياب وبرشاقة سوبر مان قفزت والضحكة تتطاير من ملامحي ببطن تاليا فصرخت وضحكنا معًا ثم خرجنا معًا من الغرفة واضعًا يديّ فوق كتفها وهي تحملني من الأرض لتتساوى أطوالنا رغم قصر قامتها لكني صغير أنتظر أن أكبر، أعيش على أمل أن أتمدد مثل عمي وأصطدم بالباب كلما مررت أمامه

دخلنا معًا للمطبخ وخبزنا ثلاثة أنواع من البيتزا الشهية، اتجهنا لغرفة والدينا خبطنا خبطات متوالية على الباب بنغمة موسيقية خرجا ولكن لأول مرة أرى ملامح الحزن بوجه أبي بل هو حقًا كان يبكي.. ما الشيء الذي يبكي المرء أكثر من حسرته على ضياع من تعب بتربيته؟ فهو متعلق بي كثيرًا والآن جاء أبي مصادفة ليأخذني منه، أم سيتركني؟ أهو حقًا أبي؟ أم أنا بلا أب وأم؟ بلا هوية؟ بلا مأوى؟ بلا حياة؟ حتى بلا حمزة... فأنا غريب عن نفسي.. هل حمزة هو اسمي؟ أم اكتسبته؟

-إلى أين ذهب عقل عقلة أصبعي؟

قالتها تاليا بخبث وهي تضربني على ظهري بعنف مجددًا:

- لولي.. ألسنا أصدقاءً؟

ابتسما والداي.. أمسكت بقدم أبي وكأنني أشد أزره

_أحضرنا لكما بيتزا أرجوك تناولها معنا . (قلتها أنا)

_سآكل معك وبعد الأكل سندخل غرفتنا نتحدث معًا كالرجال. (قالها أبي)

ضممنا كفينا ومررناهم فوق بعضهم البعض سنبقى أصدقاء وأخرجت لساني لمؤمن كي يغضب أعلم أنني شرير لكنه أيضًا دائمًا ما يغضبني

_والآن أنا فقط غريب عنكم... تاليا صديقتك، أبي وأمي هم أبطال حياتك، أما أنا فاللهو الخفي (قالها مؤمن)

فجريت بسرعة، قفزت لأجلس على قدمه: أنت أخي حبيبي أعيش بحمايتك لي أتذكر حين ضربني إبراهيم لم أتجه لسواك ورددت لي حقي حين ضربته بمنتصف الشارع أمام الجميع.

أنت حبيبي حموزي. (قالها مؤمن)

فجريت وراءه حتى وصلنا غرفته سرعان ما أغلق الباب بمزح كي لا أضربه

*****

مر يوم السبت بملل كدت أن أحطم الساعة وأحارب عقاربها كي تتحرك وفي تمام الساعة السابعة صباحًا دق المنبه فاستيقظت وأيقظت تاليا، ارتديت ملابس المدرسة وارتدت تاليا فستانًا بلون البحر يتخلله ورود باللون البمبي وحجاب بلون البحر وتكحلت بالكحل الأزرق وضعت أحمر شفاه وردي وتناولنا الإفطار ثم هندمت لي شعري ونزلنا معًا بصحبة مؤمن

غمزت لها ضحكنا معًا: المجانين بنعيم

قالها مؤمن مشيرًا لأذنه بعلامة الجنون

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا جاءت تاليا إلى المدرسة كنت بدورة المياه رأيتها فقررت أن أراقبها خوفًا من أن تداري الحقيقة تحدثت مع المشرفة تتساءل عن أستاذ عماد فأجابت أنه بغرفة المعلمين. دخلت تاليا الغرفة والجميع ينظر إليها بتعجب جلست أمام أستاذ عماد

قالها أستاذ عماد وهو ينظر لتاليا بإعجاب وعيناه تلمعان من السعادة

-أخي شهاب يريد أن يدرس مع حمزة درسًا خصوصيًا

قالتها تاليا وهي بقمة التردد والخوف، فشخصيتها بها خلل كبير جدًا تهندم حجابها تشد بفستانها وكأنها تجلس على الجمر من التردد تغيرت ملامح عماد: لكنني لم أعطِ لحمزة درسًا خصوصيًا

قالها عماد فبرزت عين تاليا: لماذا قال لي أخي إنك ستدرس لحمزة

ارتبك عماد ململمًا أشيائه: لن أعطي درسًا خصوصيًا لحمزة أبدًا.. أتسمعيني أبدًا.

تلألأ الدمع بعينها فسرعان ما أخفض نبرة صوته معتذرًا لها

هناك مشكلات عائلية بيننا تمنعني من مجرد دخول منزلهم.

دخلت بهذه اللحظة متدخلًا بالحديث لماذا لأني أنا سبب كل ذلك تخشى من..... صمت رهيب وكأن أحدهم ربط لساني

حمزة ما الذي أتى بك إلى هنا؟ (قالتها تاليا بغضب).

تحدثت بجدية: امتنعي عن الحديث أختي.

- أختك؟

قالها عماد بغضب، فارتبكت تاليا، أخذتني بسرعة خرجنا من الغرفة لنتهرب من الحديث معه ولكن سقط من حقيبة يدها شيء ما... فما هو؟

الفصل الثاني

فقدت شهيتي للحياة، ازداد خوفي وكثرت ظنوني، ترددت هل أسأل والدي عن سبب خلافه مع أستاذ عماد؟ أم أنتظر ترتيبات القدر؟

أما تاليا فكانت بقمة الفضول، وفجأة دخلت غرفتي دون استئذان، حدثتني كرجل كبير.. كانت تلهث أنفاسها وهي تقول:

_أغثني يا حمزة.. أغثني.

أعطيتها كوبًا من الماء، جلست تروي لي ما حدث.. كم هي غريبة الحياة حين تفاجئك بصدف لا تعلم من أين أتت لكنها تساعدك وتكشف لك تفاصيل كنت تتمنى أن تعرفها فهي فقط ترتيبات من رب العباد ليريح قلبك ويزيح عنك أعباء الفكر

وما روته لي جعلني أفكر بحيلة لأتأكد مم يدور برأسي.

*****

اليوم العطلة أخذني والدي لقضاء يوم مميز على شاطئ البحر أخذنا للعين السخنة وهناك حجزنا غرفة جميلة تطل على البحر وقفت بها وأنا سعيد... منذ طفولتي أعشق البحر.. أخذ أبي قسطًا من

الراحة بينما استبدلت أمي وتاليا ملابسهما وأفرغا الحقائب بالخزانة.. بدلت ثيابي وهندم لي مؤمن شعري مثله تمامًا، ارتدينا ملابس السباحة وهو سروال بلون البحر تتخلله رسوم لنجمة البحر ونضارة شمس.. أيقظنا أبي بلهفة على نزول البحر، استبدل ثيابه، دخلنا المطعم الخاص بالفندق لنتناول الإفطار كان هناك كل ما لذ وطاب من بيض، وأجبان، والعسلين الأبيض والأسود مع الفول والفلافل.. طعام شهي والمياه الغازية متوافرة دون حساب دون أن يمنعني والدي من شرائها.

انتهينا وخرجنا متجهين للشاطئ.. مشيت على الرمال الساخنة أنا وأخي والابتسامة لم تفارق ملامحنا.. وكأن الصدفة تكاد أن تقتل سعادتي المؤقتة؛ جاء جارنا بمنزلنا القديم أستاذ فؤاد.. نعم هو ذلك الرجل الذي أخبرني أخي وأختي أنه والدي وهم أخذوني منه..

بعد أن أخذ راحته بالحديث مع أبي، كنت ألعب جوارهم على الرمال فالشاطئ صخري، رفضت النزول للبحر، انتظرت حين خرج من البحر كلًّا من تاليا ومؤمن، سمعت همساتهما بأذني وهما يشيران إليّ فسألتهما بضجر: _ ماذا بكما أيها البلهاء؟

تاليا بدهاء: - والدك هنا وبالصدفة!

هل يراقب حموزي؟؟ من أين عرف أننا هنا بنفس الفندق؟

ضحكت وضربا كفوفهما ببعض بينما أنا ذهبت للمرحاض.. بكيت كثيرًا خلف الباب، عند خروجي منه تقابلت مع الخالة جيلان

زوجة أستاذ فؤاد، اطمأن قلبي قليلًا حين نظرت إليّ نظرة عابرة.. لم تعرفني أو تتحرك مشاعرها تجاهي فإذا كنت ابنها لأخذت صورًا لي كل فترة لتعوضها عن فقدي، كيف لأم أن تلقي طفلها دون أن تطلب رؤيته ولو لمرة واحدة؟

ودعهم أبي لنعيش ببعض من الخصوصية ومرت الرحلة بهدوء.

*****

سألتني تاليا ماذا ستفعل بما روته لي، بعد أن رسمت الخطة بالكامل بمساعدتها بالطبع قررنا التنفيذ وبالفعل أخذت موعدًا من أستاذ عماد لتأخذ منه ما سقط منها حين كانت بالمدرسة.. لاحظت نظرات إعجاب منه لأختي.. كنت أقف وراء الشجرة الخضراء، أمسكت بالغضن ليداري جسدي النحيف سمعته وهو يقول والابتسامة لم تفارق ملامحه:

_لم أفتحها أو أقرأ منها سوى صفحات قليلة سامحيني قتلني الفضول

شهقت أختي وكأن شيئًا ثمينًا سقط منها.

تعجب عماد وسألها بدهاء:

_لما كل ما قرأت يخص حمزة؟ هل هو أقرب شخص لكِ بالفعل؟

تغيرت ملامحها فجأة وقالت بصوت مرتفع قليلًا كي لا أسمع:

_ماذا قرأت؟

فأجابها بسؤال أربكها:

_هل حقًا نادمة على ما فعلتِه بحمزة؟

لم أعد أستطيع أن أحتمل.. خرجت من وراء الشجرة، وقفت أمامها وأنا أمد إصبعي الصغير أمامي مشيرًا لمخاصمتها وأسأل بصوت يكاد يصدررنينًا من حدته:

_ماذا تخفي عني تاليا؟ على أي شيء أنتِ نادمة؟

فوضعت يدها على فمي وهي تهمس بأذني في محاولة منها لامتصاص غضبي:

_اصمت حمزة.. اصمت أرجوك

سأعرف كل ما أريد دون مساعدة أحد وسأعود وحيدًا للمنزل لا تتحدثي معي ثانيًا أبدًا أبدًا فهمتِ

وبطريقي للمنزل صدمتني سيارة وبسرعة البرق اتصلت أختي على هاتف المنزل.. لم يجب أحد قط.. هاتف أبي المحمول كان مغلقًا فاتصلت بعمي أدهم فجاء على الفور.. كانت مجرد كدمات فكنت على وعي بكل ما يحدث لكن الموقف مرعب على طفل بعمري يصدم بسيارة وينقل للمشفى.

دخل عمي غرفة الطوارئ وهو متلهف لرؤيتي، كان يهرول تجاهي لكنه وقف مكانه صمت تمامًا وترقرق الدمع بعينه وهو يقول بصوت أشبه بالهمس:

_لما اخترت حمزة ليدخل بخلافاتنا؟ لما؟؟

حمزة لا.. كل العائلة بكفة وابني حمزة بكفة.

نزلت كلمته على مسامعي ككارثة كبرى فنطقت أولى كلماتي بعد الحادث وأنا أنظر لعمي بفضول، أتعجب:

_حقًا أنت أبي؟ لست عمي؟ لما تركتني لأخيك؟

تعالت ضحكات تاليا تراني بقمة السذاجة لكن عمي ضمني لصدره وهو يرتب فوق كتفي:

_ليتك ابني.. لو كان لدي ابن لوضعتك معه بنفس المكانة.. أنت تستحوذ على قلبي لسبب لا أعلمه حتى الآن

أما عماد كان سيرحل من المشفى، استوقفه أدهم وهو يحذره ألا يقترب منا وفوجئ به يضع المفكرة الخاصة بتاليا بيدها

فأخذها جانبًا وحذرها وهو يحرك إصبعه:

_إذا كانت هناك علاقة بينكِ وبين عماد سيقتلكِ أبوكِ الأمر أكبر مما يخطر ببالكِ

لم تجب.. فقط تسارع الدمع على السقوط من عينها وهي تترجاه ألا يحكي لوالدها شيئًا، جاء مؤمن معه أكثر من عشرين شابًا محملين بأسلحة حادة وعصيان خشبية يسألون عمن صدمني بسيارته أما أبي فتريث بعض الشيء وسألنا بهدوء:

_كل منكم نزل متجهًا لدراسته.. كيف تقابلتما وبهذا المكان بالتحديد؟

صمتت تاليا وارتسمت ملامح الرعب على وجهها، جاء أبي بعد رحيل عماد بدقائق معدودة، أما أنا فتحدثت بشجاعة لأول مرة ورويت لأبي كل شيء بصراحة كنت أنتظر منه قبلة تشجيعًا لي على صراحتي لكنه صفع تاليا ونظر إلي وهو يتحدث بصرامة لأول مرة:

_حسابك معي حين نعود للمنزل.

خرج من غرفتي بالمشفى، أتى بمؤمن من يده، كانت أمي بالخارج فجاء بها عمي وتحدث أمام الجميع بكل صراحة وقوة شخصية:

_أتحدث أمام الجميع التحذير يشمل كبيرًا وصغيرًا إذا حاول أحد منكم أن يعرف ما السر الكائن بيني وبين عماد سيلقي مصرعه.. سأقتله.. أقسم بربي فهذه منطقة سوداء بحياتي.. خط أحمر.. لن أتحدث ثانية بهذا الأمر.

فتحدث مؤمن مبتسمًا: من عماد؟ وما هذا الحديث؟ أبي من يفتش وراءك؟

فقال عمي وهو يشير له أن يصمت: - سأروي لك كل شيء أيها الكائن المجنون.. أنت من عالم آخر تعيش مع حالك.

وفي الليل سمح لي الطبيب بالخروج من المشفى.

سنوات وأنا ضائع بين أبي وعماد وأدهم أترنح بينهم وبكل مرة يشير قلبي على أحد منهم يؤكد لي أنه أبي لكن أمي لم أتردد لحظة. . أعلم أنها أمي، لم أشعر بمشاعر الأمومة سوى معها، كدت أن أتناسى الأمر لكن ذات يوم كان أبي يحضر وليمة ويدعو عمي أدهم وزوجته.. طهت أمي طعامًا شهيًّا، كانت رائحته تفوح لتملأ المكان، كنت أتردد على المطبخ لأختلس أصابع كفتة الأرز المقلية فرأيت شيئًا أربكني.. راقبت من بعيد فرأيت أمي تقف أمام أدهم ويتحدث معها بهمس.. تضحك معه.. تحركت رجولتي، أخذني الشك لعالم آخر وددت أن أقتله بيدي لأتخلص من مشاعري بهذه اللحظة التي لم تمح من ذاكرتي حتى الآن، ذهبت لأنادي زوجة عمي كي ترى زوجها فروح الانتقام جعلتني لا أفكر سوى بإيذائهم والغريب بالأمر أنني لم أجدها، نزلت لشقتها بعد أن طرقت الباب كثيرًا خرجت لي وتبدو على ملامحها علامات البكاء وكأنها تبكي منذ ساعات طويلة.. سألتني بفضول عن سبب نزولي لها وتركهم

أجبت بقلق: - أمي أعدت الطعام وقالت لي أناديكِ

سقطت دموعها فجلست جوارها أسألها ماذا بها فقالت بحرقة:

_كنت أتمنى أن يكون لديّ طفل

بجدية وكأنني بعمرها:

_الرضا بقضاء الله نعمة كبيرة، ارضي بما قسمه الله لكِ واستمتعي بحب عمي لكِ فهو بالتأكيد لديه نفس المشاعر.

وبدون تفكير، بتلقائية وبغضب قالت:

_لا!!!!!!

الفصل الثالث

حاولت تغيير الموضوع، طلبت مني أن أنتظرها حتى تغسل وجهها ونصعد معًا.. كانت خائفة من صرصور وجدته بالمرحاض... صعدت معها لكن عقلي ما زال يقف بشقتها، يسمع كلمة لا التي قالتها بيقين وشجن... هل سيتأكد حديثي وبالفعل أنا ابنه؟

وقفت فجأة على الدرج أتذكر أمي وعمي تركتهما أعلى وبكل قسوة أخذتها للمطبخ كي ترى بعينها لكنه كأن يتناول الأطباق من تاليا.. انتهى المشهد وكأن الله أراد أن يحدث كل ذلك لأسمع من صفاء هذا الحديث.

*****

أيام كثيرة مرت.. كبرت وأصبحت شابًا وكل يوم أبحث عن شيء يكشف لي سر عماد.

ذات يوم خرجت أتنزه مع أصدقائي وأخذنا صورًا جميلة للذكرى كنت سأطبعها لكنني وجدت المصور أغلق المحل فطلبت من تاليا الحاسوب الخاص بها.

ترددت، تأففت.. لكنني بإلحاح ويدي تطرق على الباب بنغمة موسيقية.

_"يلا هاتي اللاب.. يلا هاتي اللاب" ثم أزغرد بصوت عال فيئست من محاولات رفضها ثم ألقته بوجهي وبغضب ممزوج بابتسامة

_ لا تنسَ أن تأتي به غدًا كونك شخص بارد الطباع

لففت شعرها حول يدي وأنا أضحك وأقول بصوت ممزوج بالضحك الصاخب

_أنا بارد!!!!!

وبهذه اللحظة دخل مؤمن وشاهدنا.. سألني ماذا بكما أيها المجاذيب؟!!

فصاحت تاليا:

_حمزة البارد أخذ الحاسوب مني عنوة وضربني

فأمسكني من ياقة القميص وصاح:

_منذ طفولتك تحب الذهاب لصالون الحلاقة.. هل تريد أن تصبح حلاقًا؟ كفى برودًا

ضحكنا معًا واتجهت لغرفتي وبيدي الحاسوب.

وبالصدفة تركت هي الإنترنت مفتوحًا، وجدت رسالة لها من شخص ما

_سأتحدث معكِ بعد أن أنهي تصحيح واجبات الطلاب!

تذكرت قول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا)

وضعت الصور وأنا سارح بعالم آخر أجاهد مع شيطان نفسي وكعادتي وطبعي المتردد الخطاء من صغري عافرت دقائق، ساعة ثم فتحت الحاسوب بسرعة بالغة وفتحت الرسائل وأنا أردد "أستغفر الله العظيم"

ثم أبرر لحالي أنني أفعل كل ذلك خوفًا على أختي لكنني كاذب.. متطفل.

فوجدتها تتحدث مع عماد.. تذكرت حينها كلماته حين قرأ مذكراتها وسألها لما معظم ما كتبته كأن عني فبحثت في المحادثة من بدايتها فاكتشفت أمورًا كثيرة... بالبداية تحدث معها عن إعجابه بها وتناقش معها بكل ما كتبته، كنت أتصفح المحادثات وجسدي يرتجف خوفًا قد تتلهف لمعرفة الحقيقة وحين تقترب تتمنى أن تهرب خوفًا مما قد تعرفه فتتمنى ألا يحدث كل شيء لن يرضي أي منا على حاله فلكل منا لحظات رضا فقط لحظات لست ساعات تصنع فارقًا بشخصياتنا وتغيرنا تمامًا

كتبت: " حزينة على حمزة، أشعر أني تسببت بجرح له طالما سخرت منه أنا ومؤمن واضطهدنا شخصيته، نظرته بها انتقام لا أعلم من أين أتى بها وهو ما زال طفلًا صغيرًا "

وهذا ما كان يتحدث عنه عماد معها نادمة هي على ما فعلته بي.. الآن فقط بدأت تشعر بي.. أن لدي مشاعر مثلهم وإذا هي تعلم مدى تأثير الحديث في الإنسان لما جرحتني أكثر من مرة.

ضحك عماد وقال باستنكار:

_هذا طفل غير واع الجراح والأمور التي تفكرين بها

فأرسلت له وجهًا غاضبًا وكتبت

_تذكر يوم الحادث حين تقابلت معك أنا وحمزة حينها سأل عمي متلهفًا (أنت أبي؟ لما تركتني لأخيك؟)

لم أبالغ إذا قلت إن صدى هذه الكلمة يتردد بأذني كل لحظة وكأنني أنا ومؤمن تسببنا له في كارثة وحين أخبرت مؤمن ضحك بشدة كادت أنفاسه أن تنقطع وهو يقول:

_يستحق لأنه شخص مجنون.. ليت أبي وأمي يعاملانني كحمزة

نعم حينها كنت طفلًا صغيرًا لكنني تألمت كثيرًا، تشتت أفكاري.

*****

اكتشفت بالصدفة من خلال مناقشتها معه حقيقة عمي.. فهو كان يتحرش بتاليا حين كانت تنزل لتنادي زوجته لأمي أن كان وحده يبدأ بالاقتراب منها ولمس جسدها بطريقة تثير غضبها، خوفها كرهت النزول عنده.. كانت صدمة كبيرة بالنسبة لي فهو بمنزلة مثل أعلى هل ما فعله كان بدافع الانتقام من أبي لأنه أخذني منه؟ أم ماذا؟!

حزنت على أختي فهي مسكينة

ما أقسى أن تعيش الفتاة هذه المشاعر الوضيعة مع من وثقت به وهذا عمها تربطه بها صلة دم تعتبره كوالدها. كما روت أنها ذات يوم رأته صفاء وهو يتحرش بها، ارتعبت تاليا من صراخها صعدت لشقتنا وهي تنتظرها تصعد تخبر والدي

من أي شيء خائفة أختي وأنتِ المجني عليها؟

لم أود أن أستكمل قراءة كي لا أفقد احترامي بأحد آخر لكنني بحثت عن شيء معين وهو

حين سألته تاليا عن سر هروبه حين واجه أبي.. صمت تمامًا وحتى الآن بعد أن قرأت محادثات كثيرة كان فحواها قصة حب كبيرة بينهما لا يخبرها سره مع والدي وسبب الخصومة بينهما.

*****

بعد ساعة ونصف جاءت أختي لتأخذ مني الحاسوب، فدقت باب الغرفة.. لم أسمعها كنت سارحًا بعالم آخر أفكر بما قرأته سألتني:

_حمزة هل انتهيت مما تفعله؟ أريد حاسوبي؟

رغم غضبي مما قالته عني ورغم سخطي من علاقتها بعماد الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا.. لم أدرِ بحالي سوى وأنا أقبل يدها، أضمها بقوة، وددت أن أخفف عنها بعض الشيء ما فعله بها عمي، حملت نفسي ذنب ما حدث.. لو كنت رجلًا حقيقيًا لما أرسلت أختي شقته

لم تستوعب حناني المفاجئ فخرجت من الغرفة تهلل كطفلة صغيرة وتقول بصوت طفولي:

_قبل حمزة يدي.. أبي.. أمي.. حمزة فقد عقله.. لأول مرة يعاملني بحنان

مزح والدها قائلًا:

_ليس هناك شخص أحن من حموزتي لكنه يداري ذلك بهيبته وطول قامته يشبه لاعبي المصارعة بعقل عصفور صغير

ضحك الجميع ولكن دق الهاتف فجأة ليقطع ضحكاتهم ويحولها إلى آهات...

*****

شخص مجهول يتصل يخبرهم أن مؤمن أصيب في حادث أليم.. صدم الجميع.. صرخات متوالية من تاليا فدائمًا ما كنت أشعر أنها تحب مؤمن أكثر مني حتى حدث ما خيب ظنوني...

سأل أبي على مكان الحادث وبسرعة صاروخية أخذنا بسيارته متجهين إلى هناك.. مكان سيئ غير مجهز بالمرة، أخي ملقى أرضًا والدماء تسيل من جسده بالكامل.. نظرات الرعب تكاد تنطق من عين أمي وتاليا.. طلب والدي سيارة إسعاف وبسرعة أخذه لمشفى خاصة ليجري فحوصات.. كان رأسه مصابًا بجرح عميق، تملأ الكدمات سائر جسده.

لم ينطق بكلمة واحدة أو يدلي بأي رد فعل يطمئن الأطباء حتى جاءت تاليا وحدث شيء غير مفهوم.. نظرات لوم بينهما تكتم صرختها بيدها وكأن ما حدث تسببت هي به.. جلست على الكرسي المجاور للفراش أمسكت بيده قالت بحزن عميق

_ليتني مكانك أخي شفاك الله وعافاك

كعادتي بحثت وراء غموض تصرفهما.

عدنا للمنزل في اليوم التالي بعد أن اطمأن الجميع أن مؤمن حالته مستقرة.. دخل كل منا غرفته.. شعرت بالعطش، خرجت من غرفتي فرأيت غرفة أخي مفتوحة.. ذهبت إلى هناك على أطراف أناملي، سمعت كل شيء صدمت بحقيقة أخرى كنت غافلًا عنها.. كم أنا مغفل!

أرى نفسي عالمًا أفهم كل شيء وما أنا سوى مسكين يتظاهر بالقوة والفهم والعقل المنير.

*****

دق باب الشقة.. الوقت متأخر للغاية فسألت نفسي وأنا أحرك فمي بالاتجاهين: من الطارق؟!

هل هناك كارثة جديدة؟

إنه عمي جاء ليطمئن على مؤمن، سأل عن والدي أجبته بنظرة اشمئزاز وصوت خافت: جميعهم نائمون تفضل عمي

فنزل على الفور.. كان فقط يطمئن

قررت أن أفعل شيئًا مجنونًا لأجذب أنظار الجميع.. جميعهم يلتفون حول مؤمن خشية فقدانه، أما أنا لا يكترث أحد بوجودي فجأة أصبح مؤمن هو الأهم

ما أصعب أن يعتاد المرء الاهتمام، يموت كل لحظة بمحاولة إشهار وجوده في الحياة دون جدوى لا يحطم سوى حاله.

*****

بينما كنت أنا على سطح المنزل أراقب أسراب الحمام، سمعت صوت سيارة إسعاف تليها أخرى شرطة.. نظرت من السور فوجدت حركة سريعة في المكان لا أحد يعلم ماذا حدث.. أعداد كبيرة تقف أمام

البيت.. عن أي شيء يبحثون؟ لا أحد يعرف اللغز.. نزلت بسرعة فوجدت جثة غارقة بدمائها تخرج من بوابة العمارة ورجل مسلسل بحديد.. لم أرَ وجهه.. اقشعر بدني من القاتل.. من المقتول؟ لا أحد يعلم أي شيء بحثت بالشقة عن أحد أفهم منه شيئًا فوجدت مؤمن مقتضب الملامح عابسًا لا يمزح كعادته.. سألته وجبهتي منكمشة من شدة الترقب

_ماذا حدث مؤمن؟

دفعني بقوة وهو يستكمل غلق أزرار قميصه.. تاليا ليست بالشقة نهائيًا

ناديت بصوت مرتعب: _أمي..... أبي..... تاليا.....

لا أحد يجيب، سندت كتفي على الحائط ثم جلست أرضًا.. هل حدث ما يجول بخاطري؟ هل قتل أبي أمي؟ هل من المعقول؟!!

اكتشف أني لست ابنه.. توقفت لحظة عن التفكير وأنا أحدث حالي: كيف؟

ومؤمن يتحلى بالهدوء إلى حد كبير

نزلت من الشقة ورأسي مزدحم بالأفكار وقد كانت صدمة كبيرة لي.. لم أتوقع للحظة فقد شخص من إطار معارفي فرؤية القتيل تسير القشعريرة في الجسد.

*****

هربت من الموقف بسرعة خوفًا ذهبت لمنزل صديقي معاذ، ارتميت بين أحضانه وأنا أروي له ما حدث.. الجميع مشغول لم يهتم أحد بوجودي على غير العادة كان هو أيضًا يشعر بالخنق فروى لي وهو يتنهد من شدة الألم النفسي يعاقبه والداه بالتقييد بقفل حديدي يلقوه ككلب يأكل بفمه

علامات التعذيب تسطو على جسده فلم يظهر لون جسده من آثار الضرب سألته متعجبًا:

_ماذا فعلت كي تعاقب بهذا الشكل معاذ؟

أجابني وهو مكسور والدمع يتلألأ بعينه .

_كل ما بالأمر أن هذه هي الطريقة التي يرونها صحيحة للتربية.. يحطمون جسدي كل يوم ليتهم ما كانوا أهلي

ثم ألقى بزجاجة المياه الغازية القديمة المعبأة بالمياه على المنضدة الخشبية

أردف وسألني بفضول:

_هل يضربني والدي؟

فمددت جسدي على الأريكة واضعًا يدي وراء رأسي تحدثت بضياع:

_لم يعاقبني أي شخص بحياتي.. أصرخ وأضرب بالأرض فأحصل على ما أريد في الحال لم أتذكر أن شعرت بألم من ضرب أحد لي سوى بالمدرسة الضرب بالعصاة

رفع حاجبه وقال بغبطة: _محظوظ أنت يا حمزة

حركت رأسي نافيًا وأنا أردد: _لست محظوظًا معاذ.. لست محظوظًا، لم يعجب أحد بحاله كم تمنيت أن أعاقب على أفعالي كي لا أظهر شخصًا تافهًا منزوع الإحساس عديم المسؤولية فأنا ومعاذ ضحية أسر لم تعرف الطريقة الصحيحة لاحتواء أبنائهم.. أحدهم تدلل وأخرى تعذب.. ماذا نحن فاعلون؟

*****

عدت للمنزل وأنا منتظر الصدمة.. أتوقع موت كل شخص بأهلي سوى مؤمن لأني رأيته.. أصوات القرآن تملأ المكان وصوان كبير تحت البيت.. رأيت أخي من بعيد فحدقت عيني وأنا أفكر هل قتل والدي أم والدتي أم أختي؟

حركت رأسي بسرعة واستكملت السير فوجدت أبي.. وضعت يدي على قلبي لأحمد ربي وحضنته كطفل في الثالثة من عمره لكن ما قاله جعلني أدفعه متسائلًا:

من توفي؟

الفصل الرابع

حدقت عيني لاستقبال الصدمة.. كم وددت أن أفقد سمعي كي لا أسمع.. أخشى الفراق بكل لحظة أتشاهد وكأنني بانتظار الموت.. حتمًا سيأتي لكنني أترقبه بخوف شديد يؤلمني ويرهق تفكيري كثيرًا

قال أبي بحزن: - أعلم أنك كنت تحبها حبًا جما

سألته بعين يملؤها الرعب بعد أن ضممت شفتيّ للأمام وأنا أردد

_أمي أم تاليا ؟ من أبي .. من فقدنا؟

ضم يدي وأشار بعيدًا تقف كل منهما جوار الأخرى ها هي أسرتي بخير.. أخذت نفسًا عميقًا وكأن روحي قد هدأت من جديد.. أحبهم كثيرًا لكنني لا أظهر ذلك كي لا يستضعفونني .

من أغلى على المرء من أسرته؟

فمن الممكن أن نحزن على أي شخص يرحل لكن فقد أحد أفراد الأسرة يكون بمنزلة كارثة تقضي على كيان الأسرة، تحطم جدارًا من جدرانها فتهدد بالتفكك وتهتك القلوب تخرج الدمع المتحجر بالأعين لتتوالى الأوجاع.

*****

انتهى اليوم وقفت مع والدي حتى لملم رجال الفراشة الصوان.. صعدنا معًا ومؤمن يسند والدي ويشد أذره كي لا يقع من هول الصدمة التي قلبت موازين عقله لما أتى هذا الشخص بهذا الوقت بالتحديد؟ وما علاقته بالضحية؟ وهل القتل عن عمد كل هذه الأسئلة دارت بأذهاننا جميعًا بعد أن أخبرني أبي بكل شيء لكن كل ما دار بعقله هو وجود ذاك الغريب الذي ينتفض كلما سمع اسمه أو جاءت سيرته.

تاليا صامتة تمامًا لا تتحدث مع غريب أو قريب، أخذت هاتفها من غرفتها دون أن تشعر فوجدت رسالة من عماد

_أقسم لكِ لم أفعل خطأ بحقكِ أقسم لكِ حبيبتي وستثبت لكِ الأيام حقائق ستدركين من خلالها كم أنا مظلوم

كل منا يحزن على حاله ويتظاهر بمؤازرة الآخر، لم يكن أحد بنفس الموقف أو يشعر بك وكأنه أنت مهما كانت درجة قربك منه حتى لو بكى وأغرق الكون بالدمع.. كن أكيدًا يبكي حزنًا على حاله أو تذكر شيئًا ما أنهكه فحزن على حاله، أما أنت فمجرد شخص أبحر بمواجعه فأخرج الدموع

*****

مؤمن بعالم آخر مع أصحابه لا يكترث لشعور والده المعتصر حزنًا على فراق أعز شخص له بالحياة فهو من تبقى من رائحة العائلة

أعدت والدتي الطعام ووضعته على المائدة نادت كل منا.. لم يأكل أحد، نظرات من الجميع لأبي

نظرات خوف على أب لا نملك سواه قد نفقده بلحظة فهو شديد التعصب يرتفع ضغطه من أقل انفعال.

فهمها هو بشكل آخر فصرخ بوجهنا بعد أن وضع الملعقة فوق طبق الأرز الذي انسكب على الفور

_لا أريد أي سؤال.

لم أفهم شيئًا تمامًا فكل كوارث الكون السبب بها هو عماد، حسبي الله به لن أسامحه أبدًا مهما طال الزمان

لاجت عين تاليا فهي لم تفكر برد فعل والدي إذا عرف بسنوات العشق التي تربطها بعماد الغامض الذي لم تعرفه تمام المعرفة لتسلمه قلبها على قفص من ذهب فزواجهما محال.

لم يتحدث أحد، ربتت والدتي على كتفه وهي تردد والدمع يسقط على المفرش الأبيض من عينها

_حبيبي لن يسألك أحد نحن نريد راحتك تناول أي طعام لتقوى على استكمال مشوارك غدًا

ردد مرات متكررة وهو يأكل والطعام يملأ فمه، يتساقط من بين شفتيه

_سأقتلك يا عماد آجلًا أم عاجلًا أقسم لك سأقتلك.....

تاليا تحرك أقدامها بقوة وتقضم أظافرها

احمرت أذناها ثم انتفضت من مقعدها وتحدثت بصوت جهوري

_لما تكرهه إلى هذا الحد ماذا فعل ليس من حق أي مخلوق أن يسأل أو يحاول أن يعرف!!!

نهض من مقعده واتجه إليها وهو يكتم نفسها بيده قائلًا:

_لولا وجوده بشقة عمكِ لما قُتِلت زوجته المقصود هو ليست هي لكنها هي من وقفت أمامه....

فأي رجل بالكون يرى زوجته مع غريب سيقتلهما على الفور من مجنون يفكر أو يدع عقله يتصرف بهذا الموقف والغريب بالأمر أنه لم يرَ أي شيء خارج فهو كان معها وباب الشقة مفتوح كالعادة.

لكن السؤال الذي حير الجميع هو

لماذا أتى إلى هنا بهذا التوقيت؟

وهو يعلم أن عمي بالعمل لو لم يعد من عمله ليأخذ بعض الأوراق التي تذكرها للتو لما حدث ما حدث

سمعت تاليا الحديث وأنفاسها مكتومة تحاول والدتها فك يد والدها من فوق فمها فعادت لغرفتها بعد أن تركها ويملؤها الضجر تبكي

بصوت مرتفع، ووراؤها كظلها مؤمن يرتب فوق أكتافها ويحاول أن يرضيها يعلم. مدى حزن والده على حبس أخيه فمن المفترض أن يوضع عماد معه بنفس الزنزانة لكنه جبان هرب على الفور

ابتسم رغم حزنه في محاولة لتهدئتها وهو يقول لها

_مجنونة أنتِ ما الذي قلتيه لأبيكِ؟

تحدثت بصوت متهدج من شدة البكاء

_هناك الكثير لا تعرفه أخي اصمت تمامًا

ضمها قائلًا :

_لست أنا مؤمن صديق طفولتكِ لما لا تروي لي كل شيء

فاعتدلت بجلستها وهي تكفكف دمعها بيدها تتوسل له أن يسمعها دون مقاطعة، وبدأت حديثها وهي تذكره بذاك اليوم الذي سمعت حديثهم به وهي تقول بشرود

_تذكر يوم الحادث حين طلبت منك الذهاب للإسكندرية وتحاول دخول منزل قديم هناك مدعية أنه لأخ لصديقتي التي سرق منها ميراثها وأعطتك مفاتيح كثيرة لتحاول فتح الباب بها

مؤمن رافعًا شفتيه لأعلى

_وما علاقة كل هذا بعماد، أبي

أشارت له أن يتحلى بالصبر وهي تستكمل حديثها :

كنت كاذبة أخي فهناك بهذا المنزل سر كبير يخص والدك وعمك ومن خلاله من الممكن أن نكشف عماد ووالدك ونفهم القصة التي تم إخفاؤها عنا منذ سنوات طويلة .

مؤمن وهو متعجب من كذب أخته:

_وبنفس اليوم حدث الحادث ولم تخبريني بأي شيء تفكرين حتى هذه اللحظة وأنا لم ولن أعود لهناك مهما حاولتِ إلا في حالة أن أفهم كل شيء

تاليا وهي تمسح دمعها بيدها :

سألها كيف عرفتِ بوجود هذه الأوراق تهربت من الحديث تمامًا فلم يهتم وغير مسار الحديث وهو يعاتبها على الكذب فهو لم يتوقع قط أن تاليا كأي مخلوق على وجه الأرض يراها ملاكًا ماذا لو عرف أنها على علاقة بعماد.

تعجبت من إهمال مؤمن للأمر لم يكن لديه فضول ليعرف السر كما تعجبت تاليا التي تبحث عن سبب تظهر به براءة حبيبها لكن هل يستحق الحب أو الشفقة أم إن والدي محق.

لا تفكر هي بشيء على الإطلاق غيره فمرآة الحب مظلمة ظالمة.

حديث تقليدي داربينهما وهو يحاول أن يطيب جرح قلبها من قسوة والدها دقائق وسألها مؤمن سؤالًا قلب موازين عقلي من جديد

سألها وهو يحك ذقنه:

_لما لم ترسلي حمزة ليبحث عن هذا السر فهو مثلكِ مستعد أن يفعل أي شيء ليرضي فضوله؟

أجابته هي بصوت خافت :

_حمزة هو كلمة السر فالأمر يخص حمزة بشكل قريب وهذا ما فهمته حتى الآن.

ثم اقتربت من أذنه وقالت شيئًا ما فحدق عينه ووضع يده فوق فمه ثم صمت لدقائق وهو يقول لها مهما حدث كيف يدفعكِ الفضول للصياح بوجه والدكِ؟

كل ما سمعته منكِ لن يغفر تمامًا موقفكِ ولن يجعل أبي يسامحكِ فعمي بكارثة وأنتِ لا تفكرين سوى بحالكِ.

اغرورقت عيناها بالدمع وهي تقول :

_لا أحب عمي أنا أكرهه ليته قتل حاله لا أحب أن أراه

لن يعاتبها فهذا ليس وقت للعتاب، أخذها لغرفة والدها، دقت باب الغرفة، فتحت والدتها.

مؤمن بلهجته الكوميدية

_سأطير أنا كم أنتم مزعجون

حزنت على حالي وازدادت ظنوني فالسر مربوط بي وما قالته لمؤمن جعلته يتعجب ويصمت يا الله كم كان موقف صعب شعرت حينها أنني طفل صغير تاهت والدته وسط الزحام يبحث عنها بكافة النساء لم يجدها جفت دموعه فباتت نظراته محزنة بعينيه الحزينتين.

دخلت الغرفة طلبت مني والدتي أن أخرج لكنني رفضت وأنا أضرب الأرض بقدمي .

_غريب أنا عنكم لست صغيرًا أفهم كل شيء لما تعاملونني كطفل لم يتعدَ الرابعة من عمره ماذا تخفون عني لا بد أن أفهم كل شيء فجأة أصبحت أنا بعيد عن الجميع لا يحق لي أن أسأل، أفهم أو حتى أتكلم.

وضعت أمي يدها على فمي ضمتني على صدرها وهي تقول بحنان

_اهدأ حمزتي اهدأ حبيبي.

تاليا شاردة فكسرت والدتها حاجز الصمت وسألتها:

_لماذا فعلتِ هذا مع والدكِ تاليا؟

أجابت بحنق:

_لأنه ديكتاتوري جدًا يريد أن نكره عماد دون أن نفهم شيئًا فمن الممكن أن يكون إنسانًا طيبًا وأبي هو الجاني لما لم نفهم الأمر بوضوح ونقرر نحن من المخطئ نحدد من نكره ومن نحب لا إكراه في الحب فالقلوب شفافة تكشف ما داخلها عن طريق المواقف .

تنهدت أمي :

_لا تشكِ فعماد يكرهنا وأنا أؤكد لكِ ذلك وإن كان بيده أن يحرقنا لفعل ذلك دون أدنى تفكير هو يحاول إيذاء كل شخص بأسرتنا حتى حمزة كان طفلًا صغيرًا ولم يسلم من شره كان يقلل من درجاته ليظهر ضعيفًا بالدراسة أمام زملائه دون أدنى رحمة بطفل صغير ما ذنبه بكل الصراعات القائمة

لم أتحمل أن أصمت أكثر من ذلك تحدثت وأنا أقول :

_سأعرف كل شيء أقسم لكِ سأكشف كل شيء يومًا ما

سألت والدتي عن أبي فقالت إنه ذهب للنيابة ليساند عمي بمحنته فطلبت منها مفتاح شقة عمي دون أن تخبر والدي إنني أخذته رفضت لكنني أقنعتها بهدوء إنني أفعل ذلك لمحاولة إثبات براءة عمي بعد ساعة كاملة من الإلحاح وافقت على إعطائي المفتاح فنزلت للشقة وقفت تاليا أمام الشقة خائفة من الدخول أخذتها أمي من يدها وهي تردد والدمع يتساقط من عينها.

_رحمكِ الله يا صفاء رحمكِ الله يا حبيبتي.

بحثت بغرفتها أول شيء أفرغت خزانة ملابسها أرضًا لم أجد شيئًا قط سوى بعض النقود والذهب أفرغت والدتي الأدراج لم تجد شيئًا قط بحثنا بالمطبخ فوجدنا جهازًا محمولًا صغيرًا فارغ شحنه تمامًا أعطيته لوالدتي لأفتحه لعلي أجد به شيئًا ما يكشف الألغاز كلها أو حتى جزءًا ضئيلًا منها وبالوقت نفسه شعرت بألم ببطني فدخلت بسرعة المرحاض استغرقت وقتًا طويلًا وأنا أقضي حاجتي علقت عيناي بصندوق من البلاستيك به أدراج وحين انتهيت وارتديت ملابسي فتحتها فوجدت أكياس الشعر، ماكينات حلاقة بأحدهم، أما الآخر فوجدت به زجاجات صغيرة بها زيوت من أنواع مختلفة وماء ورد وعطور ومن ضمنهم زجاجة فارغة بها فلاشة كمبيوتر أخذتها بسرعة وخرجت من المرحاض وأنا أهلل أمي أمي وجدت فلاشة أخذتها وصعدنا شقتنا وجدت الحاسوب مفتوحًا فوضعت به الفلاشة وأخذت نسخة من الملفات بسرعة وأخفتها دون أن أخبر أحدًا وتركت كل شيء حتى جاءت كل من تاليا وأمي من المطبخ، جلسنا أمام الحاسوب وبسرعة دون أدنى تفكير جلست تاليا أمام الحاسوب جلست على زر المسح ومسحت الملفات وقالت وكأن جبلًا تلاشى من صدرها.

_الفلاشة فارغة تمامًا

طلبت منها أن أحاول البحث عن الملفات أقنعتها أنها قد تكون مخفية دقائق وظهر كل شيء أمامنا أصابتنا حالة من الذهول حين انكشف أمامنا الأمر وضعت والدتي يدها على فمها وهي تردد: يا رب سلم.

وضعت تاليا يدها على فمها وهي تقول بخذلان

_لا لا يمكن لا يمكن أبدًا

وأنا أرجع بخطواتي للوراء لن أفهم شيئًا أبدًا

الفصل الخامس

في النيابة يجلس وكيل النيابة وأمامه مقعدين يجلس على أحدهما أدهم والآخر المحامي الذي أحضره له صلاح تم فتح المحضر وأدهم بحالة لا يحسد عليها.

سأله وكيل النيابة:

وأمر المحضر أن يكتب إنه في يوم الأربعاء الموافق السادس من مارس ٢٠٠٢ قام المدعو أدهم دهشور بقتل زوجته صفاء علوي وجاء بلاغ للقسم بالواقعة وبحضور الشرطة وجدوها غارقة بدمائها.

قامت النيابة بضبطه وإحضاره وبسؤاله:

- هل بالفعل قتلت زوجتك المدعوة صفاء علوي؟

أجاب بصوت متهدج:

_لم أكن أقصد أقسم بربي، أحبها.

= لماذا قتلتها؟

أجاب بخوف:

- خلاف بيننا لأنها لا تنجب ولا ترغب في أن أستعيد ابني الذي أنجبته من زوجة أخرى جعلتني أتركه يتربى بعيدًا عن أحضاني والآن حين واجهتها وأصريت أن آتي بابني ليقضي معي ما تبقى من عمري طلبت الطلاق.

فسأله وكيل النيابة ماكرًا :

- عشت معها أعوامًا كثيرة هل تذكرت للتو إن لديك ابن وترغب في احتضانه؟

أجاب بحنق وهو يمسك منديلًا يكفكف به دمعه:

_وصل ابني لمرحلة المراهقة ويحتاج وجودي جواره لن أعد أحتمل أن أراه من بعيد أرغب بأخذه بين أحضاني وأصرخ بالكون بأكمله هذا ابني يا عالم من لحم ودم.

- أين هي والدة ابنك وكم عمره؟

أجاب وهو يحك دقنه:

- هي بالسجن وابني في السادسة عشرة من عمره.
- ولما لم تطلقها بدلًا من أن تقتلها؟

أجاب بصدق فاق الخيال:

- لن أقوَ على العيش دونها فصفاء تملك قلبًا أغلى من الماس

ضرب وكيل النيابة كفًا بآخر وهو يقول:

- لكنك قتلتها فعلًا وستعيش دونها.

انفعل أدهم وهو يبكي

- كنت أريد ابني تفوقت غريزة الأبوة على حبي لها
- هل ترى إن هذا سبب كافٌ لقتلها؟

تدخل المحامي وهو يقول:

- هل تسمح لي بالحديث مع موكلي على انفراد

فخبط بيده على المنضدة وهو يقول:

_اصمت الآن حتى انتهي من التحقيق وسأتركك معه كما يحلو لك

سأله وكيل النيابة بانفعال:

- كنت بعملك .. لما رجعت بسرعة؟

لاجت عين أدهم وقال وهو يمسح وجهه بيده

_نسيت أوراقًا مهمة تخص العمل

هل تذكرت حينها خلافكما أم أنك وجدت شيئًا خارجًا عن المألوف شخصًا غريبًا معها أو وجدتها تعبث بأوراق خاصة؟

امتنع عن الإجابة وصمت تمامًا

فانفعل المحامي: - أرجوك أ. أدهم أخبر النيابة بكل شيء

لم ينطق بكلمة واحدة صمتَ صمتًا رهيبًا وكأنه أصيب بالبكم

تحدث وكيل النيابة بكل هدوء :

_إذا أنت من تريد الإعدام.

ليس هذا فقط أنت تضلل النيابة وهذه قضية أخرى بعقوبة كبيرة

سأله بعد أن تنهد :

من الذي اتصل بالنجدة وأبلغ عن جريمة القتل؟

_لا أعرف كنت أريد إنقاذها لم أتوقع أنها ماتت للحظة فقط اتصلت بالإسعاف لن أعلم من أين أتت النجدة وكيف بلحظة كنت بيد الشرطة وأنا مصدوم.

تم إغلاق المحضر خرج المحامي منفعلًا وطلب أن يجلس مع موكله على انفراد سأله :

- لما لم يظل بكل شيء فأبي أخبره بوجود عماد

فتحدث بصوت جهوري ثم قبض يده وهو يمسك بالمحامي وأخفض صوته :

_اسمع إذا كنت تريد أن تعيش لن تخبر مخلوقًا بهذا الموضوع قتلت مرة وبإمكاني أن أقتل ألف مرة اصمت تمامًا.

هندم ملابسه وخرج من الغرفة وهو بقمة غضبه جلس مع أبي يروي له ما حدث فجن جنونه من تصرفات أخيه التي ستجعله يُلقى بالسجن على أقل تقدير بل إنه من الممكن أن يعدم.

خرج من النيابة وهو غاضب يفكر بأي طريقة يصل بها لعماد لا بد إن يفك شفرة ما حدث فذهب للمدرسة ليأخذ عنوان عماد فكر في حيلة ليحصل على عنوانه من الإدارة بسهولة فدخل غرفة المدير وتظاهر بالهدوء يسأل عن أ. عماد فأخبره المدير أنه بإجازة منذ حوالي شهر ونصف فطلب عنوانه مدعيًا أنه أحد أقربائه ويريد أن يعطي له بعض الأشياء التي أرسلها له أهله فأعطاه العنوان الموضح في السيرة الذاتية وهو العنوان الكائن بالإسكندرية أخذه وخرج بسرعة جرى كطفل حصل للتو على لعبته التي فقدها لأيام عديدة ركب سيارته وقبل أن يضع المفتاح بها دق هاتفه ليغير مسار تفكيره.

كيف تتحول الأمور بلحظة تتبدل الأحوال، فالكارثة تصيبك بدقائق تمحي الابتسامة العالقة بوجهك فتصرخ من شدة الألم تبدلت أحوال عمي فقد زوجته انهدم بيته بلحظة.

المتصل هو والدتي، أجاب والدي بغضب وعنف:

_نعم حنان ماذا تريدين لن أعود للبيت لا تتصلي بي ثانيًا اتفقنا

وقبل أن يغلق الخط بلحظة صاحت هي به:

_ليس هذا سبب اتصالي حدثت كارثة كبيرة احضر بسرعة.

تحدث بعنف وهو يخبط رأسه بمقود السيارة:

_ماذا حدث حنان هيا أخبريني وبسرعة وإلا أقسم بربي سأطلقكِ حالًا .

تمتمت وهي تقول :

_لن أحاسبك الآن على جنونك

فصاح بها وهو يقول:

_ماذا تقولي أيتها المرأة؟

أجابت بخوف:

_لا شيء لا شيء.

فقال وهو يزفر ويضع يده وراء رأسه:

_هيا احكِ .

فقالت : نزلت مع حمزة وتاليا للشقة لنبحث عن أي شيء ينجي أدهم من السجن أو يثبت إنه مجني عليه وليس جانيًا وجد حمزة فلاشة وبعد أن فتحها وجد كوارث كبيرة ، عماد هو من دس صفاء بيننا تخبره بكل كبيرة وصغيرة بيننا .

أبي بغضب: كفى تخاريف! تكذبين كي أعود للمنزل أليس كذلك؟

صاحت به: لن أكذب وستسمعني صلاح ، بيدي صور لأوراق الأرض التي لم يعرف أحد بوجودها سوانا أنا وأنت وصفاء وأدهم مدونة باسم صفاء علوي كيف حدث ذلك لا أعرف. اعترافات كثيرة من أخيك لصفاء أنه هو من سرق مصوغات زوجة أبيه كيف يلقي حاله بين يديها.

قالت بنفاد صبر:

معك حمزة سيروي لك ما رأيناه حتى الآن

وقبل أن تضع الهاتف بيدي صاح بها وهو يقول بصوت يكاد أن يفقد أحدهما سمعه من حدته:

_ بسرعة أغلقي الفلاشة وأبعدي كل شيء عن حمزة كي لا يعرف شيئًا وبدون نقاش.

أغلقت الخط وكأنها كانت تحلم سحبت من يدي الحاسوب بقوة وعنف لن تشهدهما من قبل، أغلقت كل شيء.

تركتني أنازع مع حالي أحارب ظنوني لن أتغلب عليها مهما فعلت أتهرب بالنوم والخروج مع صديقي منذ فترة طويلة لم أتذوق طعم الراحة لكنني لم أحتمل شيئًا آخر جن جنوني كم أتمنى أن أصرخ بوجههم وأخبرهم بظنوني لكن لن يحتملني أحد فالأمور معقدة والجميع ليس بحالته.

مؤمن يجلس على المقهى مع رفاقه يدق هاتفه عدة مرات حتى ييأس ويجيب مازحًا: - نعم أيتها الثرثارة نعم نعم نعم.

صمتت لحظات ثم قالت بصوت يتخلله الخوف:

_خائفة أخي أرجوك تعال إلي هنا أريدك جواري أخي.

انسحب من بين أصدقائه دون أن يستأذنهم اكتفى بإشارته لهم واستكمل حديثه:

_ماذا فعلتِ أختي وما هذا الرعب الذي يتخلل صوتكِ.

أخبرته بما وجدناه فسألها بلهفة وهو يضحك:

_ومن أي شيء خائفة أيتها البلهاء؟

غرفت بدموعها وهي تقول :

_ سيقتلني أبي أرجوك أخي لا تسمح له أن يقتلني أنا أختك حبيبتك

صاح بها :

- ماذا فعلتِ تاليا؟
- سأروي لك كل شيء كل ما أريده منك هو أن تأخذ الفلاشة من أمي أرجوك سأموت حتمًا لن يسامحني أحد.

تعجب من خوفها ماذا فعلت؟ ولما خائفة من أبي إلى هذا الحد لكنه صمت تمامًا حين قالت له.....

الفصل السادس

تعجب من خوفها ماذا فعلت؟ ولمَ خائفة من أبي إلى هذا الحد؟ لكنه صمت تماما حين قالت له:

-أنا على علاقة بعماد!

دق قلبه بسرعة خوفًا من أن تكون تاليا تركت نفسها فريسة بيد عماد ليقتص من العائلة عن طريقها وسألها بصوت يكاد يكون مسموعًا : ما نوع العلاقة؟

أجابت بشرود: علاقة حب .

صمت لدقائق ثم ردد: علاقة حب، علاقة حب؟

أنا على الدرج افتحي الباب..

فتحت الباب فلم ينتبه لوجودي أنا وأمي، أخذها متجهًا لغرفتها وأغلق الباب بعنف، طلب منها أن تحكي له بالتفصيل ما حدث ولما هي خائفة؟ فأخبرته أنها على علاقة بعماد منذ سنوات كثيرة على أمل أن يتزوجها.. تنهد زافرًا:

_ولهذا السبب ترفضين الزواج من أي شخص يتقدم لخطبتكِ

وضعت عينها بالأرض وهي تقول:

_نعم مؤمن أحبه ولا أريد غيره بحياتي

حدق عينه مغيرًا لهجة الحديث وهو يتوقع معها رد فعل والده بعد أن يعرف بهذه الكارثة بالفعل من الممكن أن يقتلها أو يموت حسرة.

تردد مؤمن ونظر لها نظرات مشتتة.. تنحنح بعدها وهو يسألها بفضول:

_هل سلمتِ شرف والدكِ وعائلتنا لعماد؟

انهارت بالبكاء فرغم حبها لعماد لم تفرط بنفسها قط خبطت الهاتف بالمرآة وهي تصرخ:

_حتى أنت لا تفهمني حتى أنت مؤمن تتهمني بهذا الاتهام البشع

طرقت باب الغرفة ودخلت دون إجابة أنظر لهما ليحكي لي أحدهما ماذا حدث. نظر لي مؤمن وقال:

_حمزة أصبح رجلًا ولا بد أن نتكاتف لنفكر ماذا سنفعل إذا علم والدكِ بكل شيء.

أغلق باب الغرفة وأخبرني وهو يحرك فمه بالاتجاهين ويقول بخذلان:

_هل عرفت بالمصيبة؟ أختك على علاقة بعماد؟

نظرت له بفتور بعد أن وضعت قدمًا فوق الأخرى :

_أعلم منذ زمن.. كل شخص حر بتصرفاته

أمسك بي من طرف قميصي وهو يصرخ بوجهي :

_كيف لم تمنعها أو تخبرني؟!

ألم تخشَ على والدك من الصدمة أو أنه يقتلها مثلًا؟

لم أجبه وجهت أنظاري لها وأنا أقول بتحدٍّ:

_إذا قالت لنا مما تخاف ولما محت كل شيء على الفلاشة من الممكن أن أساعدكما

تريث مؤمن وأشار لنا بيده كي نهدأ فهو لم يفهم شيئًا قط منا سألها:

_حمزة يقول إنكِ محوتِ كل شيء على الفلاشة وأنتِ تقولين إنكِ خائفة أن يراها أحد.. كيف وأنتِ أزلتِها ؟

صمتت، لم تجب قط فأجبت أنا:

_قبل أن تدخل هي الغرفة أخذت نسخة من الملفات ووضعتها على اللاب

ضغطت تاليا بأسنانها على شفتيها، أما مؤمن فتعجب من فعلتي، سألني:

_وما الفائدة من ذلك؟

أجبت بغرور:

أبحث عن شيء ما خاص بي لعلي أجده

_أي شيء تبحث عنه؟

قالها مؤمن بغضب فأجبت ببرود:

_أمور شخصية

فانفعل وهو يضربني ضربًا مبرحًا ويقول:

_ما هذه الأنانية؟ لما تحب حالك إلى هذا الحد؟ لم تفكر بأبيك أو أختك أو حتى والدتك التي ستتهم أنها لم تربِ ابنتها!

قاطعته تاليا:

_لكني لست عديمة التربية

أشار إليها وهو يحدق عينه:

_اخرسي أيتها الساقطة.. أقسم بربي سقطتِّ من نظري وكأنني لم أركِ قبل اليوم.. لما فعلتِ كل هذا؟!!!

شعرت بالحنق من مؤمن الذي لم يرَ حاله مخطئًا قط فخرجت عن صمتي:

_انظر من يتحدث عن الأنانية مؤمن الذي لم يعرف عنا سوى أسمائنا نحن.. لسنا أسرة متماسكة كما ندعي، نحن غرباء نعيش ببيت واحد لكن كل منا يعيش بعالم مع حاله.. كفى كذبًا وافتراءً جميعنا مخطئ.

*****

تحت منزل معاذ صديقي وقفت أنادي:

_معاااذ معاااذ

فخرج والده من الشرفة وبيده زجاجة مياه غير نظيفة ألقاها لتسقط على ملابسي وهو يقول:

_ارحل من هنا أيها الأبله.. ابني لن يصادق أحدًا.

ضحكت من شدة الإحراج واتصلت به أخبره بما حدث ولم تمر سوى دقائق قليلة، نزل معاذ بفناء المنزل وألقى والده له جلبابًا محملًا بملابس له ومربوط من الأطراف، أخذه وهو يتلقى شتائم وإهانات لا يتحملها أحد.

ربتت فوق كتفه وأنا أواسيه كل منا حزين ويريد من يواسيه، جلسنا على المقهى، طلب كل منا مشروبًا أخذته لمنزلنا، تقابلت مع والدي بفناء العمارة، كان عابسًا تمامًا لم يقل لي "كيف حالك حموزي" كعادته.

فقط ربت فوق كتفي وصعدنا بعد أن قدم له معاذ واجب العزاء.

دخلنا غرفتي ليرتاح هو بينما أنا خرجت بسرعة لأشاهد ما سيحدث في هذه الصراعات التي لن تنقضي أبدًا. ففي بعض الأحيان نعيش بعالم من الحكايات تمر بنا أحداث كثيرة لن نتوقعها وكأننا نشاهد مسلسلًا طويلًا الحلقات نتوقع كل حلقة بشغف، ننتظر باستماتة وبكل حلقة تنهدم بداخلنا أنفسنا دون اهتمام من أحد.

سألتني والدتي: _هل ترى أن هذا وقت مناسب ليأتي معك صديقك معاذ؟

أجبت بمنطقية: طرده والده أمي، هل أتركه ينام بالشارع فالساعة الآن الحادية عشرة مساءً .

فوضعت يدها فوق صدرها وهي تتمتم: - يا حبيبي يا بني

دخلت بنفسها الغرفة بعد أن تركت الباب، طلبت منه أن يتناول معنا الغداء.

فابتسم وهو يقول:

_أي غداء خالتي فالساعة الحادية عشرة مساءً

ضحكت وهي تقول:

_ماذا أفعل؟ لن أقوى على وضع لقمة بفمي سوى بعد مجيء الجميع

ابتسم على الرغم من الدمع العالق بعينيه وهو يشكرها فهو لا يشعر بطعم أي شيء بالدنيا بعد أن كسره والده أمامي.

أقسمت عليه أن يأكل وألحت لكنه رفض فجلست جواره وهي تقول:

_إن لم تأكل لن أتذوق الطعام، أتتحمل ذنبي وأنا لم أضع لقمة بفمي منذ الصباح؟

وافق على مضض وخرج من الغرفة، جلسنا على المنضدة والجميع ينظر لبعضه البعض، نظر لي مؤمن باشمئزاز ثم حرك رأسه موجهها لمعاذ:

_كيف حالك معاذ؟

أجاب بخجل:

_بخير وأعلم أن هذا ليس الوقت المناسب لآتي هنا، بعد إذن الجميع سأرحل حالًا.

فنهض والدي من مقعده وأتى بمعاذ ليجلس وقال له:

_أنت مثل حمزة ومؤمن هذا بيتك .

تعجب معاذ وقال:

_لكنك لم ترني سوى مرات معدودة .

فأجاب والدي وهو يحاول أن يرسم الابتسامة على وجهه المنهك من شدة الحزن والإرهاق

_أنت صديق حمزة الوحيد وأنت لا تعلم كم أحب حموزي وأثق في اختياراته لذا أنا أحبك

شردت تاليا وهي تفكر.. هل يثق بها والدها كثقته بحمزة؟ أم أنه متوقع خطأها؟ خانت ثقته بها وأهانت كرامته حين سمحت لحالها بالسقوط بحب خصمه. بينما أنهى أبي طعامه بسرعة، نظر لأمي ففهمت ما يقصد، دخلت الغرفة دون حديث، كنت أنهيت طعامي فدخلت المرحاض أغسل يديّ، لحق بي مؤمن، لكزني بكتفي وقال:

_ليتك ترسل معاذ لمكان ما أو ينام لأننا على موعد مع كارثة كبيرة أيها الحموزي

نظرت له بحزن:

طلبت من معاذ أن يسبقني ليحجز لنا مقاعد على المقهى المفضل لنا فموعد مباراة مصر بعد ساعة ونصف من الآن نزل بسرعة دون تردد دخلت الغرفة فأخرجنا والدي جميعًا وبدأ يبحث عن أي شيء بالفلاشة، لم يجد قط فنادى بصوت مرتفع

_مؤمن مؤمن، هيا تعالى إلى هنا

فدخل مؤمن الغرفة بينما تاليا ترجف وتأكل كل ما تجده أمامها من شدة الخوف.

سأل والدي مؤمن:

_هل تعرف أن تظهر لي الملفات التي كانت هنا؟

حرك رأسه نافيًا وهو يقول:

_حمزة هو من يفهم بهذه الأمور

صاح به أبي: حمزة لا.. لا أريده أن يرى شيئًا أبدًا.. أقسم عليك ابني تصرف بسرعة

حاول مرارًا أن يبحث عن الملفات لكنه فشل تمامًا فاقترح مؤمن أن يطلب والدي مني أن أظهر له الملفات وأخرج مباشرة قبل أن أرى شيئًا فوافق على مضض.

دخلت الغرفة فتحدث والدي بحنان متغاضيًا عن ارتباكه:

_حموزتي هل تعرف أن تظهر لي الملفات التي كانت هنا؟ أعلم أنك عبقري ابني.

حركت رأسي بالإيجاب، جلست إمام الحاسوب وإتيت بكل الملفات، شكرني والدي، قبل جبهتي وهو يعطيني مائة جنية لأشاهد

المباراة مع صديقي كما يحلو لي على المقهى فتعجبت من إصراره على نزولي من البيت.

نزلت دون أن أرى أي شيء لكن مؤمن كان جوارهما يرى كل شيء وتاليا ما زالت جالسه على الطعام تحدق في الأطباق تفكر في اللا شيء.

شاهدت المباراة ومع كل هدف أبتسم وأنهض من مقعدي لكن عقلي ما زال مع أبي ببيتنا.. لم تنتهِ المباراة واتصل بي مؤمن وهو يقول:

- حمزة هيا بسرعة حمزة اطلع

صعدت دون أن أخبر صديقي فجرى خلفي وهو يلهث لا يعرف ما حدث..

فتح مؤمن الباب بعد أن سمع صوت أقدامي فوجدتها مفترشة الأرض لا تتحرك تمامًا وقفت مكاني وكأنني مثبت بمسامير حديدية فلكزني مؤمن

هيا بسرعة أحملها سنأخذها لأقرب مشفى

طلب أبي من معاذ أن يسبقنا ليأتي بسيارة أجرة تأخذنا للمشفى

في المشفى حركة سريعة.. الجميع يفكر ماذا حدث لهذه المسكينة؟ كلمات تتردد أسمعها وكأنها صدى صوت

_لا حول ولا قوة إلا بالله، ماذا أصاب هذه المسكينة؟

أما الأطباء أخذوها لغرفة الطوارئ لمحاولة استعادة وعيها والوصول لسبب واضح لما حدث، أبي لا يفهم ما يحدث، أنا ومؤمن على دراية بما تسبب لها بهذا الانهيار العصبي

نعم إنه الخوف هو من يؤدي بنا بلحظة وينم عما نخفيه بأساريرنا وكأنه زجاج شفاف يعكس اضطراباتنا ويكشف ما يدور بنا فيكشفنا أمام الجميع وكأنه منبه تم ضبطه على ساعة الانهيار، يدق قبلها بلحظة إما نستعيد حالنا إو يُقضى الأمر وننتهي معلنين عجزنا وضعفنا، رغبتنا في الاختفاء من الحياة

وهذا ما حدث لأختي؛ حزينة هي خائفة مما سيحدث فالخوف من مجهول هو أبغض أنواع الخوف وكأنك تسير بغابة تتوقع ظهور حيوانات شرسة أو الضياع وسط الأشجار حتمًا ستصاب بمكروه لكنك لن تعلم من أين ستأتي الضربة التي ستقضي عليك.

فكرت كثيرًا : هل رأى شيئًا على الفلاشة يدين أختي؟

أم عرف أبي ما حدث وقام بمحاولة قتلها بالسم فوصلت لهذه الحالة.

وما إن خرجت من شرودي حتى فتح باب الغرفة انتبه الجميع خرج الطبيب وجميعنا حوله نحاول الاطمئنان عليها فأجاب بهدوء:

_الأمر بسيط تعرضت ابنتكم لضغط نفسي تسبب لها بانهيار عصبي كل ما تحتاجه هو أن تأخذ قسطًا من الراحة ليس إلا وتستطيع

العودة للمنزل في الصباح ونصيحتي كطبيب هي أن يتم إبعادها عن أي مناوشات عائلية.

اطمأن قلبي على أختي بعض الشيء وعيناي عالقة بأبي وهو يقول:

- أحمدك ربي كفى صدمات

دخل لغرفتها ومعه مؤمن يبكي بحرقة ويقول لها :

_لا تغضبي مني أختي، أخاف عليكِ وأحبكِ أكثر من حالي سامحيني وهيا نعود لبيتنا.

- أبي يمسح جبهتها وهو صامت تمامًا وأمي تنظر من خلف الزجاج تضع يدها على قلبها وتشكره على سلامة وحيدتها.

عدنا للمنزل وأنا متعجب من هدوء أبي، كيف تناسى أخاه الملقى بالسجن.

اتصلت أخت معاذ به تطلب منه أن يذهب ليقضي معها يومين حتى تهدأ أموره مع والده فوافق بعد أن لاحظ التوتر على أسرتنا.

وفي اليوم التالي ذهبنا جميعًا لنأتي بأمي وتاليا من المشفى، عدنا للمنزل، جلس أبي معنا ساعة واحدة قبل أن ينزل ليعود للنيابة بمستنداته الجديدة التي ستقلب موازين القضية تمامًا.

تحدث معنا بشفافية عن موقف عمي بالقضية، استمعنا له بإنصات واهتمام شديدين ووقفت أنا عند كلمة تترد بمسامعي طيلة الوقت وهي تبرير عمي لقتله لها .

كيف قال إنه لديه ولد ولديه ستة عشر عامًا مثلي وكيف لم يتعجب والدي من هذه الأقوال إذا كانت كاذبة؟

كادت رأسي أن تنفجر من الزخم، تذكرت كلمات الخالة صفاء رحمها الله وهي تقول لي: لاااا ... لا يريد طفلًا

كما رأيت اسم عماد وكأنه مرسوم بمخيلتي وحوله علامات استفهام عديدة، لن أفسر شيئًا أبدًا.

سأل مؤمن أبي عن الفلاشة وماذا كان موجود بها فأجاب والدي:

_اعتراف مصور من صفاء لأدهم أنها مهددة بالقتل من عماد إذا عرف أحد علاقتها به وأنها نادمة على كل ما فعلته والملحق أيضًا بالفلاشة

نظر مؤمن لتاليا مبتسمًا :

ولما أبي كنت لا تريد أن يفتح حمزة الملفات هل هناك ما يخصه؟ أم أنه ثرثار سيروي كل شيء للناس.

حاول أبي أن يضحك لكنه لم يتغلب على اضطرابه، طلب مني أن أجلس فوق قدمه، فقالت أمي مبتسمة:

_حمزة أطول منك قامة وما زلت تدلله كطفل صغيركم أنت غريب أيها الرجل .

ضحك الجميع.

دقائق واستأذن والدي بالرحيل متجهًا للمحامي ليخبره بما سيغير كل شيء بالقضية ويدين عماد.

تاليا صامتة لا تفكر بشيء لكن الخوف ما زال يسطو عليها ولم نعلم من أي شيء.

أخذنا مؤمن لمطعم قريب من المنزل، طلب من والدتي أن تأتي معنا لكنها رفضت بشدة فنزلنا نحن.. طلب مؤمن لنا الطعام شطائر الخبز مع لحم مشوي وأرز أبيض وسلطات من كافة الأنواع وضع أمام كل منا نصيبه من الطعام وأخذ من أمامي طعامي وهو يضحك باستظراف ويقول:

_طعمه أشهى .

تنحنح وسأل تاليا: _من أي شيء كنتِ خائفة يا شجرة الدر؟

ضحكنا بصوت صاخب على كلمته ثم قالت تاليا:

-سأروي لكم كل شيء بصراحة ونتكاتف فعمي أدهم بريء رغم كرهي له.. لن أحتمل أن يلقى بالسجن ظلمًا.

ضحكت وأنا أقول:

_يحتاج الأمر إلى آيس كريم لنستمع لشجرة الدر بهدوء ونفهم كل شيء منها:

سألتني وهي تتصنع الابتسامة:

_وهل تعزمنا أنت على آيس كريم حموزة؟

هززت رأسي بالإيجاب:

فوضعت يدها فوق جبهتي وهي تتحسس رأسي بتعجب:

_هل حرارتك مرتفعة أخي؟

خبطت رأسها بيدي وأنا أمزح:

_هيا يا مجنونتي

جلسنا بمحل الآيس كريم صمتت تاليا فابتسم مؤمن وأشار لها أن تبدأ بالحديث

فحكت أنفها بأظفارها والدمع يتسابق على السقوط من عينها

_رأيت كل شيء رأيته يقتلها

حدقت عيني :

_ألم تقولي إن عمكِ بريء من قتل صفاء؟!

وضعت يدها فوق فمها وهي تحاول نطق اسمه

_عماد هو القاتل الحقيقي

سألها مؤمن:

ماذا رأيتِ أختي وكيف عرفتِ أن عمكِ ليس القاتل وكيف اعترف على نفسه وهو لم يقتلها؟؟؟

الفصل السابع

سألها مؤمن:

- ماذا رأيتِ أختي؟ وكيف عرفتِ أن عمكِ ليس القاتل وكيف اعترف على نفسه وهو لم يقتلها؟؟؟

- قبل الحادث بثلاثة أيام كانت الخالة صفاء تشكو لي ولأمي الغبار الذي ملأ الشقة وأنها تريد أن تعيد ترتيب كل شيء من جديد لكنها لا تستطيع وحدها ، عمي أدهم يرفض تمامًا أن يأتي غريب إلى الشقة ليساعدها أيا كان رجل أو امرأة فهو يغار عليها من كل شيء بالحياة فعرضت عليها أمي أن أساعدها أنا بترتيب المكان وبالفعل بدأنا نرتب شيئًا فشيئًا

خرجت هي لتحضر لنا كوبين من القهوة وطلبت مني أن آخذ هدنة لنستكمل بنشاط، جلست دقيقة ثم نهضت بسرعة كي لا يهيمن علي الكسل، بدأت أن أضع الملابس على الأرض كي أرتبها بشكل جميل، تحسست الأرفف وجدت ألبوم صور أخرجته ظنًا مني أنه لعمي وزوجته وبهذه اللحظة دخلت هي الغرفة وخطفت إياه من يدي وهي تقول بتأفف:

_ألم أقل لكِ لا تفعلي شيئًا، كفاكِ أرهقتِ حالكِ اليوم

أجبت وعيناي تكاد أن تنطق غضبًا:

_لكننا كنا سنستكمل السهرة فعمي أدهم بعمله ومن الممكن أن ننهي كل شيء اليوم

صمتت صفاء وبدأت تتعامل معي بحذر وكأنها تخاف من شيء ما مع أني لم أرَ سوى صورة واحدة استنتجت أن جميع الصور لها معه، حاولت أتمالك أعصابي لكني فشلت فهذا حبيبي كيف أراه بصورة يقف ويمسك بيد أخرى وأصمت، تحدثت بكل جرأة

_ما علاقتكِ بعماد خالة صفاء؟

تزاحمت كلماتها وكأنها لا تعرف ماذا تقول ثم قالت سأعطيكِ كل ما تريدين من مال وملابس كل ما تريدين، لكن أستحلفكِ بالله لا تخبري عماد أنكِ رأيتِ هذه الصورة سيكلفني هذا الأمر حياتي.

جن جنوني، سألتها:

- وكيف سأصل لعماد من الأساس؟

تمالكت أعصابها، كفكفت دمعها، تحدثت بنبرة مختلفة وكأنها بلحظة نهضت من نومها وتحولت لإنسانة أخرى:

_اسمعيني يا حلوتي إذا علم عماد بأي شيء رأيتيه ستصل لوالدكِ مقابلاتكِ معه صوت وصورة لن يندم سواكِ

فصرخت بوجهها: كم أنتِ مسكينة تظنين أنني سأخاف الآن لا يا صفاء أنا من سأفضحكِ وأخبر عمي الذي يعتبركِ بمنزلة ملاك وديع ووالدي، ستخرجين من بيتكِ بفضيحة كبيرة لن يندم سواكِ وبأسرع وقت قبل أن ترمش عينكِ ستكون الفضيحة مكشوفة للجميع

ثم أخذت الباب بيدي وصعدت لشقتنا

شعرت بالخوف مما قالت لي ولما تغيرت بلحظة لكنني لم ولن أظهر لها خوفي كي لا تستضعفني

سألتني والدتي: - ماذا بكِ ابنتي؟

ودخلت ورائي غرفتي لكنني لم أخبرها بشيء قط فقررت النزول لصفاء لتفهم منها ما حدث فخدعتها وقالت: - كسرت لي مزهرية فانزعجت

شعرت بالخنق وصعدت .

فأصرت والدتي أن تبتاع لها مزهرية بديلة.

جلست بغرفتي أبكي وأفكر.. هل أخبره وأجازف بكل شيء؟ أم أصمت وأصبح ذليلة لصفاء بأي لحظة بالحياة سيكون معها دليل يجعل والدي يكرهني.. اتصلت به وأنا غاضبة أجابني وهو يدندن كلمات العشق ويغني لي :

(حبيبي متسبنيش أعيش ولا ثانية بعيد عن حضنكِ إنتِ حياتي)

وبغبائي بكيت وأنا أسأله :

_هل أنت متأكد من حبك لي عماد؟ أم أنني مجرد سلاح ستقتل به عائلتي؟

زفر ، وأقسم لي أنه يحبني حقًا وينسى معي تمامًا أنه على خلاف معهم. رفعت حاجبي لأعلى:

_لكن هناك من يعرف بعلاقتنا.. لم تكن حريصًا على سمعتي ومظهري بنظروالدي كما تقول؟

تنحنح وهو يسألني _ ومن هذا الذي يعرف مجنونتي؟

نظرت حولي وأنا أفكروتزداد دقات قلبي : _صفاء

جن جنونه حين سمع اسمها سألني بفضول:

_كيف عرفتِ أنها تعرف بعلاقتنا؟

خرجت من غرفتي لأتأكد أن ليس هناك أحد بالشقة، وتحدثت معه بصوت جهوري:

_بأي حق تسأل أيها الوغد؟ أنت مجنون ما علاقتك بصفاء؟ لما تلعب بالنار؟ كيف تكون على علاقة بزوجة عمي وبي بنفس اللحظة؟ كل ما يهمك هو نفسك وكيفية انتقامك لن يهمك مشاعري كيف تحب سيدة متزوجة؟؟؟ إذا كانت لديك ذرة رجولة أجب لي عن كل هذه الأسئلة التي تراودني.

سألني سؤالًا واحدًا وهو يقول بجدية غير مسبوقة:

_ لآخر مرة سأسألك.. كيف عرفتِ كل هذا؟ لن أكرر سؤالي تاليا أقسم لكِ إذا لم تخبريني سآتي لبيتكم آخدكِ من بينهم بالقوة وأقتلهم جميعًا.

ارتعبت مما قاله وأخبرته بما حدث فأغلق الخط بوجهي

لم تمر سوى ساعة واحدة واتصلت صفاء بهاتف المنزل تسأل والدتي عني فدخلت غرفتي:

_صفاء على الهاتف

دون اهتمام:

_لا أريد أن أتحدث معها أمي

أمي: لكنها ليست غاضبة وأنا سأشتري لها مزهرية بديلة

شردت للحظة

_أي مزهرية؟

ثم وضعت يدي فوق جبهتي وأخذت الهاتف لأرى ماذا تريد الخائنة، طلبت مني أن أنزل فورًا، نزلت فأخبرتني أن عماد سيقتلها وأقسمت لي بذلك فجلست أمامي تبكي وتخبرني أنها كانت تتمنى أن تعيش مع زوجها وتشعرني بالذنب أنني سأتسبب بقتلها، طلبت مني أن أتوسل لعماد ألا

يؤذيها، أخبرتني كم يحبني ويخشى فراقي، اتصلت به وأنا أتدلل عليه وأقول بحب:

_هل من الممكن أن أطلب طلبًا من حبيبي؟

سألني بغضب:

_هل أنتِ مصابة بفصام في الشخصية؟

فأخبرته أنني مجنونة به، أعشقه حد الموت وجن جنوني من غيرتي عليه.

أنا كحمزة لم أتحمل حديثها صرخت بوجهها

_ألا تخجلين من نفسكِ وأنتِ تقولين هذا الحديث أمام إخوتكِ؟

أشار مؤمن على وجهه طالبًا مني أن أصمت وأشار لها أن تستكمل فتحدثت بنظرة خوف:

طلبت منه ألا يؤذي الخالة صفاء إذا كان يحبني بينما كان شرطي الوحيد لأستكمل علاقتي معه هو أن أفهم ماذا بينهما رغم توسلها وخوفها منه، ما زالت ظنوني بأنه على علاقة معها تراودني (وما جزاء الخيانة سوى الموت!)

أغلق معي الخط وهو يتهرب من الحديث، استكملت معها ترتيب المنزل، كنت ألازمها ليس فقط لشعوري بالخجل مما فعلت والخوف أن تخبر والدي بل خوفًا عليها من عماد وبالفعل حدث ما كنت أخشاه؛

نزل عمي فاتصلت هي بي لأنزل كي نستكمل مسيرتنا وأنا على الدرج سمعت صوت صريخ مكتوم فاختبأت خلف الباب كان عماد يقول لها سأقتلكِ حتمًا وهي تتوسل وتقبل يده وقدمه وهو لن يتنازل عن قراره يقول لها بكل قسوة

_كم مرة أخبرتكِ ألا يعرف أحد بعلاقتنا

أجابت والخوف يتناثر على كل شيء من حولها

_كثيرًا لكن أرجوك لا تقتلني أرجوك

ترددت كثيرًا هل أدخل الشقة وأكتشف ما الذي يربطهما وأنقذ حالي وعائلتي من مكائدهما؟ أم أتركهما ينهي كل منهما حياة الآخر؟ وقبل أن أقرر الدخول بلحظة أخرجت قدمي من أعتاب باب الشقة، سمعت صوت شخص يصعد على الدرج؛ إنه عمي أدهم

عاد ونظر لهما وامتلأت مقلتاه بالدموع وهو يقول :

- لماذا صفاء لماذا حبيبتي؟ لما سقطتِ من نظري؟ ومع من؟ عماد!!!

اختبأت بين ضلوعه فدفعها بقسوة توسلت لعماد وهي تقول له:

- انطق أرجوك انطق .

ثم تبكي لعمي وتقول:

- أدهم لا تتركني أقسم لك أحبك وسأوافق أن يأتي ولدك للعيش بيننا وأعتبره ابني عماد هو الجاني هو الذي أتى هنا ليقتلني أنا صفاء حبيبة عمرك ورفيقة دربك

بعد لحظات أخرج أدهم مسدسه موجهًا إياه تجاه عماد فجرت صفاء بسرعة لتلقي الطلقة بصدرها. فجن جنوني منذ هذه اللحظة أنهت حياتها خوفًا من فقد عماد فماذا يمثل لها .

انتهت تاليا من حكايتها وهي تبكي بحرقة بعد أن تذكرت ما حدث

سألتها: كل هذا وأنتِ خلف الباب؟ ولم تدافعي عنها لما لم تطلبي منه أن يتركها أو يهرب ألم تخافي أن يقتله عمكِ وقتها أنتِ حقًا حقيرة أختي.

لم أصمت جرى هو خارج الشقة فوضعت قدمي أمام قدمه وأخذته بالمصعد أسأله ما الذي يربطك بها لكنه كان يبكي وكأنه فقد أمه .

مؤمن ضرب كفًا بآخر وهو يقول:

_أنتِ لستِ تاليا أبدًا أنتِ إنسانة إنانية أنتِ القاتل الحقيقي

بكت كثيرًا عدنا للمنزل ونحن نحاول طيلة الطريق إقناعها أن تعترف بالنيابة فهي الشاهد الوحيد على براءة عمها فهو كان يدافع عن

شرفه وهذا يساعد على خروجه من القضية بأقل عقوبة أو إعفائه من المحاكمة لكنها رفضت تمامًا لا تقوى على إيذاء عماد أم أنها تريد أن تنتقم من أدهم الذي قتل عذرية مشاعرها بتحرشه بجسدها كلما أتيحت له الفرصة لكنها ظالمة وانتقامها قوي فقررت أن أصل لعماد بطريقتي

*****

أخذ أبي المحامي للنيابة وطلب من وكيل النيابة أن يحضر أدهم ليرى المستند الجديد فوافق بعد إلحاح من المحامي فتح الملف كانت الخالة صفاء تجلس على المقعد تتحدث بكل ثقة

_أعرف أنك حين ترى هذا المقطع سأكون أنا بقبري

حبيبي أحبك جدًا كم. تمنيت أن أخبرك بكل شيء لحظات كثيرة كدت سأضعف بها وألقي بحالي بين ذراعيك معترفة بكل شيء لكن لم تتح لي الحياة فرصة سيقتلني عماد

ثم هزت رأسها :

نعم هو عماد هددني بالقتل أمس وإن أصابني مكروه كن أكيدًا أنه هو من فعلها وبهذه الفلاشة جميع ما كتبت لي من عقارات كل شيء فعلته ضدك لصالحه كنت أساعده لكنني كنت أحبك أقسم بربي كنت أحبك وكي تتأكد أنني لم أخنك يومًا ما أو أرتبط بشخص سواك اذهب للأسكندرية هناك بالبيت القديم المجاور لمحطة القطار ستجد صندوقًا

خشبيًا مدفونًا تحت الأرض افتح باب الشقة ثم تحرك عشر خطوات احفر مكان قدمك ستجد أوراقًا بالمنزل تثبت علاقتي به وتفك شفرات كثيرة تدور برأسك

وداعًا يا من لا تستحق مني سوى كل الاحترام والحب أحبك أدهم.

بعد أن رأى وكيل النيابة الفيديو طلب ضبط عماد وإحضاره بأسرع وقت وحبس أدهم أربعة أيام على ذمة التحقيقات.

جن جنون صلاح متناسيًا أخيه الغارق بالدمع وتوجه إلى الإسكندرية غاضبًا يتمنى أن يجد شيئًا يدين عماد ويظهر علاقته بصفاء التي يراها بنظرة ساقطة مهما كانت اتفقت مع آخر على زوجها الذي يأتمنها على حاله ينام جوارها مطمئنًا وهي تدبر له المكائد ولما تزوجته يزداد الأمر تعقيدًا وكل ما أريده هو أن أعرف من ابني ومن ابن عمي الذي عرفنا عنه بمحض الصدفة.

*****

كعادة والدي اتصل بوالدتي مسرعًا يخبرنا بآخر التطورات وأن النيابة حكمت بالقبض على عماد وبهذه اللحظة نهضت تاليا من مقعدها بتأفف غاضبة مما فعلته صفاء كيف تعترف على روميو (عماد) .

اتجهت لغرفتها تبكي بحرقة فدخلت أنا ومؤمن وراءها لنمنعها من تحذيره بملاحقة الشرطة له ونحن متأكدون مئة بالمئة إن بمجرد خروجنا من الغرفة ستتصل به إذا لم تكن أخبرته بكل شيء كفيفة هي صماء تحبه دون وعي دون أدنى تفكير رجل كاد أن يقتل روحًا أمامها كيف لم يخرج من قلبها بهذه اللحظة بلا رجعة.

كعادتي أتصرف بدهاء كنت قد أخذت من معاذ جهاز تسنط صغير جدًا يوضع بأي مكان دون أن يراه أحد والآخر يكون معي أسمع كل ما يحدث بمكان الجهاز الآخر وضعته جوار أحد عمدان الغرفة وخرجت بحجة التوجه إلى المرحاض وخلفي مؤمن ليذهب مع أصدقائه للمقهى

دخلت غرفتي أسمع ما يدور بغرفتها فسمعتها تحدث حالها

_ماذا أفعل يا ربي أنا بكارثة كبيرة ماذا لو لم أخبره ولاحقته الشرطة حتمًا سيخبرهم بكل شيء ويقتلني أبي؟

دقائق صمت ثم زفير وتنهدات متعددة وهي تقول:

_أرجوك أجب على هاتفك أرجوك

وأخيرًا أجاب عماد فقالت بصوت يتملكه الرعب:

_صدر أمر من النيابة بالقبض عليك لأن صفاء سجلت فيديو تعترف أنها إذا أصابها مكروه ستكون أنت الفاعل

بالتأكيد لم أسمعه هو ماذا قال لكنني سمعتها تقول :

_لا أستطيع بالتأكيد لا أستطيع

مناوشات ورفض كان فحواه رفضها لشيء ما.

ثم قالت وهي تستجمع قواها

_وكيف تثق بحالك بهذه الدرجة عماد ألم تتخيل مثلًا إن بيدي دليل إدانتك!

ألم يخطر ببالك إنه باستطاعتي إعطاء تصوير للنيابة وأنت تخنق الخالة صفاء

ألم تعلم أنني أعرف كل شيء يا أستاذ عماد أنا على دراية بكل شيء ذهبت للإسكندرية والأوراق معي وبيدي أن أضعك بالسجن لست وحدك بل أنت وأبي وأدهم

أنهت المكالمة وهي تقول:

_إذا كنت تفكر أنني سأكون ذليلة لعشقك فأنت حقًا مسكين تستحق الشفقة أنا أحب حالي فقط أما أنت فكنت سلاحًا أنتقم بك من والدي الذي يهينني ولا يقبل أن يسمع رأيي يومًا ما والآن انتظر قليلًا سأخبر والدي عن سر علاقتنا ليقتلتني مثلما قتلتموها سألحق بها وأخبرها أنها تسببت بخصومة كبيرة تعيش حتى الآن ماذا بك أتحب كل فتيات هذه العائلة؟ سلام عماد

ولأول مرة أعتمد على المواجهة دخلت غرفتها أخبرها أنني سمعت كل شيء كانت عيناها تنطق بالشر لكنها أخذتني تحت ذراعها وهي تقول:

_لا تخف حمزة سأخبرك بكل شيء أنت مسكين قد تكون ضحية عائلة همجية

حدقت عيني ونظرت لها وأنفاسي تتصارع

_كيف ذلك أختي؟

الفصل الثامن

ولأول مرة أعتمد على المواجهة دخلت غرفتها أخبرها أنني سمعت كل شيء.. كانت عيناها تنطق بالشر لكنها أخذتني تحت ذراعها وهي تقول:

_لا تخف حمزة سأخبرك بكل شيء أنت مسكين قد تكون ضحية عائلة همجية

حدقت عيني ونظرت لها وأنفاسي تتصارع :

_ كيف ذلك أختي؟

فقالت بجدية :

أعرف كل شيء عنك أعرف ما يدور برأسك وأتظاهر بعدم الفهم أنت تشك بنسبك لأسرتنا وتبحث عن خيط أو بصيص أمل ترى منه حقيقة أو شيئًا يريح رأسك من التفكير.

ضحكت متظاهرًا باللامبالاة :

_بالتأكيد هذا غير صحيح أختي ولمَ أشك بنسبي فوالداي يحبونني حبًا جمًا؟

وبنفس نبرة التحدي التي تهيمن على صوتها:

_وهذا هو السبب الرئيس وراء ظنونك .

تغيرت ملامحي فضحكت ووجهي يأبى أن يعود لوضعه المعتاد

_هذا غير صحيح طبعًا

خرجت من الغرفة وهي تهز أكتافها وتقول

_كما تشاء حموزي أتركك الآن مع جنونك وظنونك

*****

فكرت كثيرًا وأنا ألوم حالي على رأسي اليابس لما لم أعرف منها الحقيقة؟ لماذا أكابر دائمًا لأظهر شخصًا قويًا وأنا هش من الداخل؟

جاء والدي وهو سعيد ينوي الذهاب للإسكندرية فأصرت والدتي على الذهاب معه كي لا تتركه وحيدًا ويصطدم بعماد لكنها كانت مخطئة فما فهمته من تصرفات والدي هو أنه شخص أناني كل ما يريده هو معرفة علاقة عماد بصفاء ليس كما يدعي يريد إخراج أخيه من الكارثة.

ذهب بيوم الأربعاء وهو متفائل تمامًا إنه سيجد مفتاح اللغز أو يجد عماد بهذا المنزل.. وصل بوقت قياسي وقبل أن يدخل المنزل قابلته عجوز وقفت أمامه وضعت عصاها أمامها وهي تنظر لملامحه وقالت:

_لقد أخذ الزمن شبابك صلاح لكن يبدو على عينيك الجبروت هل ما زال قلبك أسود؟

رغم حديثها الحاد ارتمى بين ذراعها دمعت عيناه وهو يقول :

_خالة حليمة اشتقت لكِ.

فدفعته بقوة ونظرات اللوم بأعينها:

_اشتقت لمن صلاح؟ أين أنت من زمن بعيد؟

اعتذر منها واستأذنها ليدخل المنزل ويخرج ليجلس جوارها على الدرج المصنوع من الأسمنت لكنها استوقفته وهي ترفع جلبابها الأسود بطرف أصابعها وتقول بتحد:

- أتظن أنني سأتركك تدخل منزل ابني وهو غير موجود؟

قبل يدها وبتوسل :

_أخي ملقى بالسجن ومن الممكن أن أخرجه من هذا المأزق إذا دخلت البيت أرجوكِ خالة أرجوكِ

تعجب حين عرف أنها تعرف كل شيء قالت له بثقة :

_لم يقتل عماد صفاء يا صلاح ابني ليس قاتلًا مثلكم زوجها قتلها كان المقصود أن يقتل عماد لأنه وجده معها بالشقة فوقفت هي لتحميه جاءت الطلقة بصدرها .

حدق عينه وهو متعجب من حجم المعلومات عند هذه العجوز لكنها قالت له :

_يا بني أنا سيدة عجوز على أعتاب القبر سأقدم لك نصيحة لك وللزمان، لن ينتصر الظلم مهما طال الزمان، لم ينسَ الله كسر الخواطر ما بالك من كسر القلوب.

رفع حاجبيه وتأفف وهو يقول :

_وبنظركِ خالة حليمة هل ينسى الله رجلًا انكسرت عيناه وسط الرجال؟ هل ينسى نظرات الناس لنا بعد ما حدث؟

فالظلم الواقع علينا أكبر كثيرًا إلى هذه اللحظة لن تعترفي بخطأ ابنكِ من زمن بعيد، كنت أظن أنكِ تدافعين كونه ولد وحيد أما الآن فهو تسبب لنا بكوارث كبيرة تعلمها جيدًا جعلنا نترك أهلنا وبلدتنا لنعيش بمكان غريب أهذا هو العدل الذي تقصدينه؟!

نظرت لأمي وعيناها تكاد تنطق بالدمع:

_نسيتِ حنان نسيتِ كل ما حدث هل أنتِ الآن تعيشين بسعادة؟

نظرت أرضًا وهي صامتة تمامًا ، فقالت حليمة:

_الورق غير موجود بالبيت أقسم لك بذلك .

قال بثقة : أنا متأكد إنه بالداخل وأعرف مكانه جيدًا

دخلت مع أبي حاول أن يفتح الباب بالأدوات التي أحضرها معه لكنها رفعت يدها أمامه وفتحت الباب بمفتاح حديدي وأشارت لأبي ليدخل وبعد أن مشى عشر خطوات بالتمام وجد مكانًا محفورًا به صندوق فتحه بشغف فوجده فارغًا تمامًا، جن جنونه ظل يأخذ من تراب الأرض ويضع فوق رأسه.

_من أخذ الأوراق وأتى قبلي؟ ومن أين عرفتِ إنني سآتي إلى هنا حليمة؟

قال هذا بغضب وهو يمسك برقبتها في محاولة منه لخنقها فأوقفته والدتي ، تحدثت العجوز بهدوء

_اقتلني إذا أردت أعلم أنك تستطيع فعل ذلك فهذه ليست أول مرة .

سألها وهو يضع أسنانه العلوية فوق شفتيه السفلية :

_من صفاء؟

أجابت بغضب :

_اسأل قلبك يا بني وأنت ستعرف دون الحاجة لأحد

*****

عاد من الإسكندرية وهو غاضب يفكر من صفاء ولما قالت العجوز له اسأل قلبك.

خرج عماد من غرفته فوجد والدته تبكِي بحرقة سألها عن السبب فقالت له :

_رأيت صلاح وزوجته تبدلت أحواله يا بني رغم كل ما فعل انفطر قلبي حسرة عليه أصبح هزيلًا يلتقط أنفاسه بصعوبة .

فصاح بها :

_ولما لم تبكِ لأجلي أمي؟ لم تشفقي على حالي وأنا أبحث عن ابني لم أعلم هل قتلوه أم إنه يعيش بينهم.

استكمل حديثه وهو يتنهد متماسكًا أعصابه :

_حين دخلت بيتهم تمنيت أن أواجههم بكل شيء لكن أصابني الصمت وكأنني فقدت صوتي وبلحظة مر شريط الذكريات أمامي رأيت كل شيء نظرت لحمزة وأنا أسأل حالي هل هو ولدي أم هذه مجرد خرافات تدور برأسي؟ فإذا لم يمت ولدي سيكون بعمر حمزة تمامًا لكنني لم أشعر تجاه حمزة بانجذاب أمي إذا كان ولدي لشعرت به أليس كذلك؟

رتبت فوق ظهره وهي تقول له :

_اصمت ولدي لا تجعلني أحزن عليك حبيبي.

أجاب بجمود

_احزني على الأقل سأشعر أنكِ تحبيني كصلاح

أجابت بصوت خافت :

_لم يكن بيدي ابني لم يكن بيدي.

*****

نزلت من البيت وأنا غاضب جدًا من تصرف تاليا التي صدمتني من معرفتها بما يدور داخلي فأذهب كالمعتاد لمعاذ لم أجده فهو ما زال عند أخته منذ أن ترك المنزل اتصلت به وتقابلنا على مقهى بعيدًا عن منزلي رويت له كل شيء عن ظنوني وعما حدث بالتفصيل فتعجب كثيرًا كيف أشعر بذلك وأنا المدلل الذي لا يرفض لي طلب؟

وقال لي :

_أنا الذي أشعر بذلك دائمًا إن لم تكن والدتي تلدني بالمنزل كنت سأشك أنني لقيط أو أن تم استبدالي بالمشفى لكنني للأسف ابن لهذه الأسرة الأنانية .

وروى لي عن أخته التوأم التي منعوها من التعليم ولم ترَ الشارع سوى مع والدتها سألته عن اسمها فقال :

_دعاء .

أردت أن أراها بأي طريقة، أشفقت على حال هذه المسكينة التي حرمها والداها من كل شيء، ملعون هو الاهتمام الزائد قد يفقدك أولادك ، قد تبالغ بالتدليل فتخرج للمجتمع شخصًا أنانيًا جاحدًا لا يحب سوى نفسه، أما إن تبالغ بالالتزام فتخرج شخصًا يشك بحاله مذبذب، شخصيته هشة معرضة للكسر، وفي الحالتين كل ما فعلته هو أنك أسأت استخدام نعمة الله التي أعارها لك، شوهت نفسًا بغير وجه حق .

تنهدت وأنا أقول :

_ليتني عرفت ذلك قبل فوات الأوان

لكن سأستكمل ما أرويه لكم.

ذهب والدي للمحامي ليتفق معه على طريقة يخرج بها أدهم من محبسه فاتفقا على تقديم طلب زيارة ليتفقا على ما سيقولونه أمام المحكمة فقد تحددت الجلسة.

وبالفعل تمت المقابلة، جلس أبي والمحامي بانتظار رؤية أدهم، فتح باب الغرفة وحين رأى أبي أدهم نهض من مقعده كيف تبدل حال أخيه بثلاثة أيام نقص وزنه بشكل ملحوظ جحظت عيناه من حدة البكاء ظهره محني بعد أن تبدلت حياته جلس أمامهما وهو شارد لا يريد أن يسمع شيئًا فجلس والدي بجواره يتوسل له:

_أرجوك أخي اسمعني لن أستطيع أن أراك بهذه الحالة.

تنهد وهو يقول:

_ولماذا تريدني أن أخرج من هنا؟ ضاع كل شيء بحياتي.

قال أبي بثقة:

_لا تريد أن ترى ابنك؟

ابتسم وهو يقول:

_وهل سيسامحني بعد أن يعرف أنني قاتل.

تحدث المحامي :

_بكل صراحة لم أرَ أدنى سبب لإنكارك وجود عماد بالشقة فالأوراق التي اختفت من البيت تحمل علاقة زوجتك به وبالتأكيد ستكون علاقة طيبة كونها اعترفت لك.

نظر له بغضب :

_لا أعترف بوجوده، هذه زوجتي ليست عشيقتي ورجولتي تمنعني من الاعتراف .

رفع المحامي حاجبيه وقال:

_بهذه الحالة سيحكم عليك بالإعدام

هز أدهم رأسه بعدم اهتمام.

- في كل الحالات سأموت، يقتلني الندم مع كل نفس يخرج مني تؤلمني دقاتي حين ينبض قلبي وقلبها قد توقف أوقفته بيدي

نهض أبي من مجلسه :

_إذا اعترفت الآن أدهم سيتعاطف معك القاضي أما إذا لم تعترف بالجلسة ستحاكم بتضليل العدالة وإخفاء معلومات مهمة .

قال أدهم بنفاد صبر:

_سأعترف بحالة واحده

سأله صلاح بفضول :

_ما هي ؟

هز رأسه :

_أمسك بيدي ورقة تثبت صلة زوجتي به غير ذلك سأنتحر أم أعدم أيهما أقرب

*****

اتصل عماد بتاليا يخبرها أن والداي كانا بالإسكندرية ليبحثا عن السر المدفون فشهقت وهي تقول:

_ماذا حدث؟ هل تقابلا مع السيدة العجوز؟

أجاب :

_نعم تقابلا مع أمي.

ظهر الرعب في صوتها:

_أمك!!!!!

باستسلام :

_ نعم أمي، وإن لم تتراجعي عن تهديديِ سأقتلكِ وأدفن معكِ ما عرفتيه .

بلا مبالاة قالت :

_اقتلني لا يهمني شيء بالدنيا أنت لم تحبني يومًا ما لم يحبني أحد بالحياة سوى أخي مؤمن جميعكم جناة.

صرخ بوجهها:

_كفى عن جنونكِ تاليا وإلا سأخبر والدكِ بعلاقتنا

صمتت دقائق معدودة : ولما لا تخبره؟ أنا سأخبره بنفسي.

أغلقت الخط خرجت من غرفتها وكأنها لا ترى ولا تسمع أحدًا أبدًا تنادي بصوت جهوري وتفتح أبواب الغرف بحثًا عنه:

_أبي ... أبي .

استوقفتها والدتها:

_ماذا بكِ تاليا؟

سألتها بشغف:

_أين أبي؟

الأم: خرج منذ قليل لما تسألي عنه؟

تاليا متناسية نتيجة ما تفعل: سأخبره أنني على علاقة بعماد

سقط كوب الماء من يد مؤمن فتحت فمي نظرت لها بتعجب ما الذي أصابها هل أصابها الجنون ؟ أما رد فعل والدتي هو أنها جلست على ركبتيها تخبط بيدها فوق رأسها وتقول:

_ماذا تقولي ابنتي على علاقة بمن؟!

تاليا : بعماد أحبه منذ زمن بعيد وكنت أخرج معه

انفعل مؤمن وقال بغضب: وهل سيستيقظ ضميركِ وتعترفي بما شاهدتيه يوم الحادث؟ أم إن لقلبكِ رأيًا آخر؟

حكت رأسها وهي تنظر لهم جميعًا:

_لا أعرف أدهم يستحق السجن وعماد أيضًا يتلاعب بقلبي

حاولت أن أصمت لكنني لم أستطع انفعلت قائلًا :

_ أنتِ شريكة بالجريمة تاليا لن أصدق ما الذي أصابكِ لم تكوني كذلك يومًا ما؟

أجابت بحنق :

_أصابني قهر وذل وقلة اهتمام احتياج للحب واشتياق لأسرة أرتمي بأحضانها ينقصني سؤال كل فترة عما أشعر به تنقصني أم تنصحني ينقصني زوج تنقصني أخت لم تلدها أمي لتؤنس وحدتي وتخشى علي من الهواء أرتدي ثيابها ونتشاجر معًا من منا يرتب مع والدتنا اليوم أشتهي وجود أحد يراقبني ويواسيني حين تمتلئ مقلتي بالدمع وكل منكم بعالم آخر.

كما ينقصني أب حنون يحتضني يحبني مثلما يحبك أبي حمزة.

صفقت والدتي وكأنها تبارك لتاليا نهاية المسرحية وهي تقول :

_هائل يا فنانة أنتِ مجنونة نسيتِ كل ما فعلناه لأجلكِ بعد أن كبرتِ على أيدينا وأصبحتِ امرأة ناضجة تلومیننا وكأننا لم نقدم لكِ معروفًا قط حقًا ابنتي أنا نادمة على ولادتكِ ليتكِ لم تكني ابنتي انتظري حتى يأتي والدكِ ذلك القاسي الذي تذكرينه القاسي الذي كاد أن يموت

خوفًا حين دخلتِ المشفى الذي يحرم نفسه من كل شيء مقابل سعادتكم.

وبهذه اللحظة دخل والدي الشقة يسأل :

_ماذا بكم أسمع صوتكم جميعًا من الشارع؟

فقالت تاليا وهي تضحك بشدة وتبكي بحرقة مصابة بحالة من الانهيار التام وكأنها لا تعلم ماذا تقول:

_سأخبرك بسر خطير أبي لا تصدق توقع ما هو؟

نظر لها بتعجب والجميع بحالة ترقب فقالت:

_ابنتك الغالية على علاقة بعماد وضع يده على قلبه جلس بسرعة على المقعد وهو يقول:

_لا أسمح لكِ أن تمزحي بهذا الأمر وأنتِ تعلمي ذلك تمامًا

بنفس حالة الانهيار:

_لا أمزح أبي والآن سؤأكد لك أنني صادقة لحظة وسأعود .

جرت بسرعة متجهة لغرفتها وأخرجت أوراقًا كثيرة وضعتها بيد والدها وحين رآها وجه نظره للجميع ثم انهال على تاليا بالضرب المبرح وكأنه لم يكن مدركًا ما تقول سوى بعد أن رأى بعينه دليلا.

الفصل التاسع

كانت تاليا تنزف الدماء من كافة أرجاء جسدها كل ذلك وهو لم يعلم أن صفاء قتلت أمام عينها وأن كل ما حدث تسببت هي به.. هذه المرة لم يشفق علها مؤمن قط وأمي بحالة يرثى لها لا تصدق ما يحدث

مؤمن بصرامة:

_تاليا يا أبي الشاهد الوحيد على قتل عمي لزوجته؛ رأت كل شيء

نظرت له تاليا ثم بكت.. لم يؤلمها كل ما حدث قدر ما آلمها مؤمن حين فقدت حنانه بلحظة كانت تتدارى به من الدنيا تراه نقطة الضوء التي ستنتشلها من الضياع لكن بلحظة تخلى عنها.

هزت تاليا رأسها يمينًا ويسارًا، حدقت عيناها ثم صرخت بصوت صاخب وهي تقول:

_لا لاااااااااااااا

أمسك والدي بأذنها وهو يقول:

_ستروي لي كل شيء وإلا سأقتلكِ حالًا

اغرورقت عيناها بالدمع:

- ليست أول مرة تقتلني بها، قتلتني بكل مرة كتمت بها رأيي كي لا تضربني.. بكل لحظة كنت أحتاج وجودك وخذلتني، قتلتني حين أصبت بانهيار عصبي ودخلت المشفى وأنت لم تكترث أن تعلم ما الذي وصل بي إلى هذا الحال.

رفع والدي كتفيه للأعلى:

_كان أخي بالسجن والظروف لا تسمح أن أتحدث معكِ وأعرف منكِ ما حدث.. ظننت أن والدتكِ ستفعل ذلك.

أجابت بدون تركيز وعيناها تنظر للفراغ:

_لم أظن أن الأخ أغلى من الأبناء أبدًا أبي، أما عن أمي فمنذ متى وهي تهتم سوى بطعامنا وملابسنا، لا تفكر لحظة بحالتنا النفسية واحتياجاتنا كبشر.. أين هو دورها بتربيتنا لم نرَ شيئًا منها، مؤمن مستهتر وأناني لا يهتم سوى بأصدقائه، هو بالشارع طوال الوقت يأتي للمنزل فقط لينام وكأنه فندق، أما أنا فضائعة أبحث عن الحب بكل مكان وحين وجدته كان مع الشخص الخطأ، لم يحبني سوى لأنني....

صمتت لدقائق ثم قالت:

_لأنني أشبه حبيبته السابقة

شهقت والدتي خوفًا من رد فعل والدي لكنه كعادته أخذ تاليا لغرفتها وهو يسحبها أرضًا من شعرها

دخلت غرفتي لأستمع لما يحدث بينهما فسمعته يهددها

_إذا أردتِ أن تعيشي يومًا آخر أخبريني متى ذهبتِ للأسكندرية؟ وكيف عرفتِ أن لعماد حبيبة تشبهكِ؟

قالت بخوف:

_إذا أخبرتك من أين أعلم ستقتلني؟

تنهد قائلًا:

_انطقي أيتها الخبيثة، كيف كشفتِ سترهذه الفضيحة؟

طلب منها أن تغسل وجهها من آثار الدماء والبكاء، جلست أمامه والرعب يسري بجسدها يجري كدماء تسير في العروق قالت:

_اختفى عماد فجأة بالصدفة.. كنت أغسل الملابس مع والدتي وجدت ورقة بمعطفك مكتوب بها عنوان بالإسكندرية ومرفق باسم عماد، طلبت من أخي مؤمن يذهب ليأتي لي بالأوراق لكن أقسم لك دون أن أخبره بشيء أبدًا' أخبرته أن صديقتي تحتاجه لوقوعها بكارثة حاول مساعدتي لكنه أصيب بحادث، سمعت أمي تحذرك من أن يذهب حمزة للأسكندرية مع أصدقائه وحين ربطت خيوط تفكيري علمت أن حقًا هناك علاقة تربط حمزة بالأوراق أو بعماد والخلافات وحين قتل عمي

صفاء كان الجميع مشغولين نزلت بتمام الساعة السادسة صباحًا اتجهت لمحطة القطار دون أن يراني أحد منكم، وضعت الوسادة بفراشي كي تظنوني نائمة، وصلت إلى هناك، استوقفتني عجوز قصيرة القامة بيضاء يبدو على وجهها الشقاء وكأن الزمان أخذ من ملامحها الكثير؛ جهتها بها وشم أزرق ترتدي جلبابًا أسود وتربط رأسها بإحكام بشريطة سوداء فوقها حجاب أسود شفاف وقبقاب أزرق، ظلت تنظر لي بتعجب وهي تقول:

_بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، معقول ورد هل أنتِ حية؟

انتزعت حالي من بين يديها بخوف:

_بالتأكيد أنتِ مخطئة اسمي ليس ورد

مشت السيدة وهي تردد سبحان الله يخلق الله من الشبه أربعين

توجهت للبيت الذي عرفته بالصدفة من عماد دائمًا ما كان يقول لي أن له بيتًا بالإسكندرية يتردد على هناك من وقت لآخر، عرفت عنوانه كونه مميز عن باقي العقارات هناك وصلت لهناك بسهولة حاولت أن أفتح الباب باستخدام سكين رفيع بعد أن تأكدت أن الشارع خالٍ من المارة ولم يرني أحد، وجدت يدًا تكتم أنفاسي، انتفض جسدي خوفًا نظرت لأرى من فوجدتها العجوز تبتسم وتقول:

_تهربين مني يا ورد لن أتوه عنكِ ابنتي عرفتكِ من النظرة الأولى

تأففت وأنا أقسم لها أنني لست ورد ولا أعرف أحدًا بهذا الاسم من الأساس .

فقالت بغضب:

_إذا سآخذكِ للقسم وهناك تعترفين لما كنتِ تحاولين فتح بيتنا

أصابني الصمت لدقائق ثم تحدثت بخوف:

_من أنتِ؟

بثقة كبيرة:

_أنا امرأة مر الزمان عليها دون أن تتزوج، بحثت عن الحب، خذلني حبيبي منذ زمن بعيد بعد أن رفض الزواج مني كوني فقيرة وهو ابن لأحد كبار البلد فتعلمت كثيرًا أصبحت قوية أساند كل من حولي وأفرغ الحب على كل من يقابلني وكأنني أعوض فقدي له بإعطائه للناس بسخاء، والآن عرفتِ من أنا أما أنا فلم أسألكِ من أنتِ لكن مما رأيته بعينكِ الذي أتى بكِ إلى هنا هو الحب، الحب هو من يقود المرء ليتصرف دون وعي متناسيًا كل من حوله متغاضيًا عن مبادئه يسير كالعميان يتحسس كل شيء من حوله فقط ليتأكد من مكانته بقلب معشوقه.

أردفت قائلة:

_لكنه لا يبرر لكِ اقتحامكِ منزلنا بهذه الطريقة

والآن إما أن تعترفي بكل شيء أو سآخذكِ إلى القسم وأتهمكِ بالسرقة

بكيت بين يديها وأنا أردد:

_سيقتلني والدي أرجوكِ لا تفعلي ذلك ، سأروي لكِ كل شيء

استكملت:

_رويت لها كل ما حدث دون أن أكذب بكلمة واحدة فأخذتني بيدها وهي تقسم أن صفاء ليست خائنة هي فقط أرادت أن تنتقم لعماد، تعتبره مثل أخيها لأنه تربى معها بنفس البيت، توفي والداه وهو في السادسة من عمره فأخذته أسرة صفاء لاستكمال تربيته وأعانته على الحياة في محاولة لمحو آثار اليتم من وجهه لكن كان للقدر رأي آخر حين وجد عماد الفتاة التي استوطنت قلبه كانت النتيجة فقد ودمع وقمع.

حفرت معي وأخرجنا المستندات وبها صور لصفاء وعماد ووالديها مع شهادة ميلاد ل....

أوقفها أبي:

_اصمتي يا فتاة اصمتي، والآن أخرجي الأوراق

صرخت بوجهه:

_لا يا أبي لن أفعل لن أخرج المستندات.

صرخت صرخة مدوية فخرجت من الغرفة بسرعة متجهة لغرفتها مع أمي ومؤمن أخذناها من يده بأعجوبة فقالت بغضب:

_ليتني لم أرك يومًا أبي، أتمنى ألا أراك أبدًا بعد الآن.

بصقت والدتي بوجهها وخرج مؤمن من الغرفة لا يصدق ما قالته أما أنا فصفعتها صفعة قوية تركت أثر أصابعي فوق وجهها.

فتحدثت بصرامة:

_ظنونك بمحلها حمزة؛ أنت لست أخي لا تفكر كثيرًا بيدي دلائل قوية ولن أعطيك إياها سأتركك تدور حول نفسك وتندم على كل لحظة مسست بها كرامتي.

الجميع بحالة ذهول فقال أبي:

_لن يكون لديكِ دليل قوي تاليا، حمزة ابني أنا لم يكن ابنًا لأي شخص سواي بالكون.

أخذتني أمي بين ذراعيها وقالت:

_ثمانية عشر عامًا وأنا خائفة من هذه اللحظة، لن أفعل تحليل DNA ، فأنا متأكدة حمزة هو ابني، أنفاسه تروقني، وأشعر تجاهه بالعشق

نظرت لهم جميعًا وأنا أحدق عينيّ، لم أصدق شيئًا قط.

ليتني كنت غارقًا بنوم عميق وهذا حلم، طلبت من تاليا أن تضربني لأتأكد أنني مستيقظ.

كان موقف أبي غريبًا للغاية؛ خرج من المنزل دون أن يخبر أحدًا

مرت أيام وأنا أدور حول نفسي، الجميع بحالة صمت وترقب لرد فعلي لكنني أنتظر للحظة الأخيرة لأدلي برد فعل قوي يفاجئ الجميع

أتى يوم الجلسة ولم يعثر أحد على عماد واعترف أدهم بقتله للخالة صفاء حكمت المحكمة عليه بالسجن لمدة ثلاثة أعوام لاعتباره زوجًا رأى زوجته مع غريب وأي رجل مكانه كان سيقتلها .

تم إغلاق ملف القضية.

ذهبت أنا للأسكندرية أبحث عن العجوز التي يذكرونها حول المنزل لكنني تقابلت مع عماد بالصدفة وجهي بوجهه انكتمت أنفاسي وأنا أصوب نظري تجاهه وهو يفعل نفس الشيء وكأنه يراني لأول مرة وكان هذا اللقاء هو خيط لأصل إلى الحقيقة

النهاية

ذهبت أنا للإسكندرية أبحث عن العجوز التي يذكرونها حول المنزل لكنني تقابلت مع عماد بالصدفة وجهي بوجهه انكتمت أنفاسي وأنا أصوب نظري تجاهه وهو يفعل نفس الشيء وكأنه يراني لأول مرة وكان هذا اللقاء خيطًا لأصل إلى الحقيقة.

أخذني عماد بين يديه بقوة وطلب مني أن نجلس بأي مكان كي نتحدث وافقت على مضض جلسنا على مقهى قديم، وقبل أن يبدأ الحديث سألني بشغف :

_حين كنت أدرس لك ماذا كنت تريد أن تقول حين أخبرتني أنك تريد إخباري شيء مهم ولما هربت فجأة؟

بدأ التوتر يظهر على ملامحي فصمتت تمامًا، فقال بثقة:

- أنا سأجيبك حمزة، هل تظن أنني والدك؟

أومأت برأسي رافضًا حديثه فأوقفني:

_أنا لا أظن أني لا أشعر تجاهك بشيء أبدًا أعلم إن هذا ليس مبررًا قويًا لكنني شارد تائه لا أعلم شيئًا.

وضع كفه بين يديه كي يخفي آثار البكاء، حاولت أن أستغل ضعفه بهذه اللحظة وطلبت منه أن يروي لي الحقيقة كاملة تردد كثيرًا ثم قال سأخبرك بكل شيء لكن لدي شرط واحد .

كنت مستعدًا بهذه اللحظة أن أضحي بكل شيء مقابل معرفة الحقيقة، سألته بشغف وأنفاسي تتصارع كأنني أصعد درجًا :

- ما المقابل؟

بكل ثقة قال :

_تخبر تاليا بكل شيء وتقنعها أنني حقًا أحبها كنت أريد أن أنتقم منكم بأي شكل لكن أقسم بربي أحببتها وكأنها ورد لن أراها طيفًا لورد بل أحبها لذاتها وكأن الله كتب لي أن أحب هذه الملامح ويكون حبي الأول هو الأخير مع اختلاف طفيف بالطباع.

الحب الأول يترك بالقلب علامة غير قابلة للاختفاء لن ينسى أحدنا اللهفة التي حدثت بأول نظرة حب موجهة له وتصارع دقاته حين تحرك قلبه من موضعه وفر لأول مرة مع شخص آخر.

كل منا مر بهذه المشاعر قد لا تكون علاقة حب ناجحة أو تجربة أليمة تتسبب بشرخ بالروح وهدم جدار الثقة بكل شخص على وجه الأرض ففي فترة المراهقة يدق القلب وتكون المشاعر غير ناضجة بما يكفي لإتمام العلاقة فنخطئ ونتألم كي نتعلم .

أومأت برأسي موافقًا ، فبدأ حديثه:

_تعرف حمزة، قد يصيبنا الفزع إذا أمسك طفل صغير بمسدس مملوء بالطلقات على عكس وجوده بيد رجل يعي كل شيء فالطفل يتعامل بفطرته ويصيب أي شخص بدافع الدعابة دون أن ينوي الإيذاء أو يظهر بعينه الغدر أما البالغ فيؤذي وهو مقتنع تمامًا بما يفعله ويخطط له كما يجول بخاطره فلما نخشى من الطفل وهو يصوب سلاحه تجاهنا.

- حمزة: وما علاقة هذا الحديث بما يدور حولنا؟
- هذا ما فعلته أنت حمزة صوبت سلاح خوفك تجاهنا وأيقظت بداخلنا نيران الانتقام كل منا يكره الآخر رغم أننا كنا نعيش بنفس القرية لكنها ورد هي من فعلت كل ذلك .

بتعجب وأنا أرفع حاجبي الأيسر للأعلى :

_من ورد؟ رددت هذا الاسم مرتين منذ أن بدأت حديثك .

بحذر وكأنه يخشى رده فعلي:

_قد تكون أمك أو لا تكون!

رفع شفتيه السفلى لأعلى واستكمل:

_حين عشقتها سرًا كنت صغيرًا بالسن تقريبًا بعمرك حمزة كل ما فعلته أنني أحببت فتاة كانت جميلة تشبه تاليا تمامًا وكأنها هي تقابلنا سرًا أكثر من مرة رأتنا حليمة وهي امرأة عجوز تعتبرني ووالدك وأدهم أولادها لم تتزوج فسكبت مشاعر أمومتها بقلوبنا.

أخذتني عند والدك بالقوة أطلب منه يد ورد غضب هو كيف وأنا ما زلت أدرس ولم يكن لدي أسرة أو مال رفض تمامًا لكن ورد تصدت له دفاعًا عن حبها رغم صغر سنها دافعت عن حبها باستماتة خرجت من غرفتها وقالت

_إن لم توافق سأهرب معه سأتزوجه رغمًا عن أي أحد

محاولات كثيرة من والدك ليؤجل تلك الزيجة حتى جاء يوم واختفت ورد بحثنا عنها بكل مكان ثلاثة أيام الجميع يدور حول نفسه ولا أحد يعرف أهي حية أم إنها ماتت.

فجاءت حليمة وقالت :

_الآن تبحثون عنها بعد أن وقف كل شخص منكم أمامها وكسر قلبها بكلمات قاسية ماذا فعلت فقط عشقت، ما ذنب العاشق إذا ابتلي قلبه بالعشق فهذا داء ليس له علاج يعجز أطباء الدنيا عن صرف دواء لقلب مجروح .

فقال والدك وهو ينظر للأرض :

_ليتني أراها فقط لحظة وسأفعل كل ما تريد

فدخلت من الباب بسرعة وهي تتعلق برقبة صلاح:

_حقًا أخي ستزوجني وأرتدي فستانًا أبيض كالأميرات حقًا!

صفعها لومًا على فعلتها لكن اطمأن قلبه حين أخبرته أنها كانت ببيت حليمة، تغير حديثه وتحدث بلهجة حادة:

_إذا تزوجتِ عماد لا أريد أن أراكِ بعد اليوم لن أدخل بيتكِ أبدًا

اغرورق الدمع بعينها وهي تتحدث بحسرة:

_لأول مرة أشعر أنني حقًا يتيمة.

فقال صديقي السابق أدهم :

توفقت هنا وأنا أسأله بتعجب _صديقك!

أماء برأسه :

- نعم صديقي بل أعز صديق لدي كنا نتشارك بكل شيء، لا يهم الآن .

قال أدهم حينها: لما تقسُ عليها لهذه الدرجة صلاح ألم يوصيك والدك أن تكرمها وتحسن تربيتها.

نظر باشمئزاز

_وأنا فشلت بتربيتها، كيف ستتزوج من طفل غير مسؤول عن نفسه حتى إننا لا نعرف له أهلًا ؟

دفعته حليمة وهي تصيح بغضب كي يصمت الجميع:

_من أنت صلاح لتلومه على يتمه لم يكن له يد بذلك من منا يتمنى أن يعيش بلا أهل، الأسرة هي وطن صغير يحتضن كل منا يشعرنا بالأمان وحين يختفي الأب والأم يغرق المرء تحت مطر من الجراح وكأنه عارٌ في وسط الثلج، تؤلمه نظرات الآخرين لن ولم يشعر بالدفء مهما حدث بعد أن انتزع ستره فيضيع وسط مشاعر زائفة من البعض ويتألم من شفقة البعض عليه دون أن يتكلم لمن سيحكي وهو أصبح وحيدًا لن يستند على حائط متين من المرجح أن يصطدم بحجر صغير يعرقل حياته ويفسد خططه جميعًا دون أن يجد من يساعده ليستعيد حاله.

شاهدت بعينه نظرة لم أرها بحياتي حاولت أن أخرجه من هذه الحالة، فتحدث بابتسامة مكسورة

_جميلة هي حليمة وكلامها موزون .

تنهد : وفي يوم زفافي على ورد كان صلاح رافضًا تمامًا أن يأتي ليحضر مراسم الزفاف بعد ضغط من الجميع جاء لكنه كسر خاطر زوجتي بيوم زفافها لم يمد يده ليصافحها أو حتى يضمها مودعًا إياها ببيت آخر غير بيته.

سألته وأنا أحتسي كوب القهوة:

_ولما غضبت عمتي إلى هذا الحد هو يرفض من البداية فرد فعله متوقع وبالتأكيد أخبرها أنه لن يحضر الزفاف.

حرك فمه لليسار وهو يضم أصابعه كي أفهم:

_بيوم زفاف الأنثى تتمنى أن يسير كل شيء كما تريد تجمع ذكريات كثيرة في كافة الأفراح التي عاصرتها بحياتها متمنية أن تكون ليلتها أسطورية تشعر أنها ملكة واليوم هو يوم تتويجها على العرش، الفتيات ليست مثلنا حمزة. الزفاف يمثل لهن حدثًا تاريخيًا وإذا حدث خطأ بتصميم فستان الزفاف ينقلب الزفاف لعزاء وهذه لست قلة عقل أو ضغف بل هي طبيعة فطرة تجعلهن يسعدن بالزي الأبيض أكثر من سعادتهن بحياة جديدة، ورد لم يكن بجوارها أحد قط كانت وحيدة شعرت بوحدتها حين قالت لي:

_رأيت عماد لم تقف خلفي فتاة واحدة أما فتيات عائلتي وأصدقائي جميعهم كانوا سعداءً والجميع يصفق لهن ماذا ينقصني عماد كي لا أشعر بسعادة وجود أصدقائي من حولي لما أنا وحيدة ليس لدي أخت أو صديقة ألتف حول صدرها وأبكي بين ذراعيها تحتضني يوم زفافي ونبكي معًا بحرقة لما ذهبت وحدي لأتزين ولم يزغرد لي أحد قط جئت معك وأدهم حتى حنان منعها صلاح أن ترافقني حتى لم أتناول لقمة واحدة من الطعام وأنا أرى العرائس الذين يجاوروني بقمة سعادتهم مع أخواتهم وأقاربهم يمزحون ويأكلون لم يساعدني أحد بلبس

فستان زفافي فكانت بغرفة الملابس الخاصة بالكوافير المجاورة لي أخت تساعد أختها لاحظت وحدتي والدموع التي تقف بطرف عيني فجاءت تطلب مني أن تساعدني بلبس فستاني وظلت تسعدني بكلماتها عني، كم أنا جميلة وفستاني جميل بهذه اللحظة شعرت حقًا باليتم للمرة الثانية، كانت كلماتها تمزق قلبي حزنًا حمزة.

مرت سنوات وأنجبت والدتك تاليا ونحن لم ننجب ذهبت معها للأطباء كان لم يمنع الحمل شيء قط فقط هي إرادة الله سبحانه وتعالى جاء لي عقد عمل بعد أن تخرجت في الكلية بالقاهرة وافقت ورد أن أذهب إلى هناك كانت سعيدة بنجاحي وتعييني سريعًا، وبيوم كنت عائدًا من العمل ولدي إجازة دخلت غرفتنا المتواضعة وأنا أنادي بكل عشق:

_ورد، وردتي أين أنتِ يا عطر حياتي

وقفت أمام المنضدة وأنا متعجب مما أراه كل ما لذ وطاب لي من طعام ملفوف ورق العنب مع حمام محشي، دجاج محمر وأطباق الملوخية يزين كل طبق الليمون أو الطماطم بشكل وردة وشموع تلتف حول الأطباق على شكل قلب كبير، وقفت أمامها واضعًا يدي فوق فمي فجاءت ورد من خلفي تضع يدها حول خصري فانتفضت مفزوعًا.

كنت أشرب ماءً ودون أن أقصد بخخت الماء بوجهها شعرت حينها بفزع، مجنونة هي ورد ستقتله بمفاجأتها

اعتذرت له لكنه استاء من تصرفي فاختصر حديثه متنهدًا:

_كانت حامل وأرادت أن تفاجئني وبالفعل كنت بقمة سعادتي اخترت معها كل شيء خاص بتجهيزات المولود واخترنا له اسم حمزة وإذا كانت بنتًا لسميناها وعد، كنت كلما أحضر بأجازة أرافقها للطبيب وأسمع دقات قلب الجنين أراه يتحرك وبطنها تنبض واضعًا يدي عليها فيغار هو على أمه ويركلني وبيوم عدت من عملي لم أجدها بالمنزل على غير عادتها لم تنتظرني أو تُهيئ لي كل شيء لنجلس معًا توجهت لمنزل حليمة فلم أجدها أوقفتني إحدى الجارات بالشارع ترتب فوق كتفي وتقول:

_ستكون بخير ادعِ لها تلد بالسلامة سألتها بشغف

_أين هي ورد

بثقة قالت:

_أين ستكون ببيت أهلها بالطبع تلد هي وحنان كل منهما تشعر بألم المخاض ادعِ الله أن ينجيهما فسبحان من يخلص روحًا من روح.

جريت إلى هناك خبطت الباب بقدمي ففتح والدك يتشاجر معي ويسألني لما أتيت إلى بيتها صرخت حليمة:

_كفى أرجوكما لا بد أن أنقل ابنتي ورد للمشفى

صمت لدقائق من الجميع .

دفعت والدك متجهًا للغرفة أوقفني صراخ حنان التي لم تلد قط

دقائق وخرجت حليمة من الغرفة وبيدها ورد تحملها كطفلة صغيرة غارقة بدمائها أصيبت بنزيف حاد لم تمر دقائق وسمعنا صرخة طفل وضعت حنان طفلها.

وددت أن أخرج من البيت بسرعة فمنعني والدك وترك زوجتي تموت أمام عيني سمعنا شهقة أوقفت شجارنا من حدتها نعم إنها شهقة الموت شهقتها ورد بعد خروج طفلنا للحياة بدقائق معدودة والسبب هو صلاح لن أسامحه مهما طال الزمان، امتلأ البيت بالصراخ وبيد حليمة طفلين ذكرين سألتها أين ابني أقسمت أنها لا تعرف.

سألت المولدة فنظرت لي وهي تضرب كفًا فوق الآخر وصمتت تمامًا

مرت شهور وأنا ببيتي حزين على فراق حبيبتي حتى جاءني أدهم يخبرني بوفاة أحد الولدين لم أصدقه وقلت له :

_ولما لا يكون الحي هو ابني

صاح بي انتهى الأمر وإن تحدثت به ثانيًا أقسم لك سأقتلك وأمحي أثرك من الدنيا ولم يشعر أحد بغيابك أنت وحيد من سيثأر لك، لم أتسلم حتى جثة من قالوا إنه ابني حتى الآن ولا أعرف هل أنت ابني أم لا، هل مات ابني أم بقيد الحياة.

*****

بحثت عن الداية لكنني لم أجدها قط، اختفت تمامًا، حتى الآن لم أرها قد تكون توفيت وأنا مقيد بالضعف والوحدة لن أقوى على شيء سوى الانتقام فاستعنت بصفاء لعلها تندس بينكم وتتسبب بأذى لوالدك ولأدهم لم تساعدني أو تسعفني بشيء سوى أوراق تخص أملاكهم بها كنت أستطيع أن أجردهم من كل شيء وأنتقم منهم شر انتقام وكل ما أحزنني أنها زوجة صديقي والضربة حين تأتي من القريب تقتل لكنني لم أكن قريبًا منه حتى إنه لم يدافع عن زوجتي وهو يراها تموت أمام عينه فلما أنا حتى ماتت صفاء أهددها خوفًا من أن يعرف صديقي بخيانتي له وطعني له طعنة تلأزمة طيلة العمر هي بالفعل كانت الخصومة بيننا كبيرة وبآخر نقاش دار بيننا أقسم لي أنني أحقر من رأت عينه كوني قتلت أخته حين تزوجتها وهي قاصر وماتت من شدة ألم الولادة وأنني آخر مخلوق بالكون كان يتوقع فراقي.

ساعدتني صفاء حين عدت لمنزل أبيها وأنا متسخ الملابس مكسور الخاطر على رأسي تراب وضعته بنفسي فوقها تتصارع دموعي وأبكي بحرقة جلست جواري وأقسمت لي أنها ستقترب منهم وتتقرب حتى تظهر لي الحق وتعرف هل مات ولدي أم لا وتكون عيني بينهم كأنني أعيش معهم وبالفعل كانت تخبرني بكل شيء تقربت من أدهم عشقها وتزوجها دون أن يخبره أحد من أسرتها إنهم رأوني يومًا ما فوالدها كان يخفي احتضانه لي خوفًا من كلام الناس فهو لديه ابنة بسن الزواج كيف يجلس ببيته شاب كبير لكنه كان حريصًا تمامًا أن يفصل بيننا ويغلق عليها الأبواب فور دخولها غرفتها.

سنوات مرت وأنا أتقابل مع صفاء سرًا نبحث معًا عن أي خيط أصل به لابني كل ما كان يطمئنني هو قولها إنك دائمًا مع أدهم وبين أحضانه وتخبرني بحبهم الشديد لك مما أثار الشك بذهني هل نيران الذنب أحرقتهم ويعوضونك بالحب عن والدتك أم ماذا.

حين دخلت بيتكم أصابني الصمت، صمت مظلوم انهزم حتى انتصرت هزيمته على ضعفه فمضى بالحرب لن يخشى الرصاص أو يهتم بشيء يسير دون أن يبالي أي شيء كنت أود أن أخنق صلاح بيدي وأصرخ به.

- لما تركت الإسكندرية وهربت!

هل هذا ابني كما استوقفني سؤال من خلال ما يصل لي من صفاء؟

- لما تحظى بكل هذا الحب من أدهم لست صلاح فقط هو من يحبك جميعهم يميزونك حتى.....

وهنا صمت عماد فتنحنحت :

_حتى ماذا أستاذي؟

- حتى فسدت نفسيتك تدمرت أخلاقك

رفعت حاجبي متعجبًا مستنكرًا لما يقول:

_ومن أين علمت كل هذا؟؟؟؟

فاجئني برد فعله قائلًا :

_رغم أنني لا أشعر أنك ابني ما زال قلبي يتمنى أن تكون هو أراقبك دون علمك.

نظرت له ساخرًا بضحكة مستفزة فهزرأسه:

_متى آخر مرة شربت بها مخدرات ؟

انفعلت عليه ناكرًا ما يقول لكنه أشار بيده على شفتيه لأصمت:

_إن أنكرت سآخذك للمعمل وهناك سأجري لك تحليل مخدرات مع تحليل DNA .

لم أتوقع أنه رغم ضعف الأمل لديه مهتم بشأني إلى هذه الدرجة حزنت لانكشافي أمامه كما سعدت بوجوده حتى إن لم يكن أبي.

ذهبنا إلى المعمل وأخذ الطبيب عينات للتحاليل وحتى ظهرت النتيجة جلست بإحدى الفنادق الزهيدة بالإسكندرية اتصلت بمعاذ أتى إلي ولم أخبر أهلي أين أنا حتى معاذ جاء هاربًا من بطش والده وعناده معه،عقابه بالضرب على كل كبيرة وصغيرة.

*****

في منزل صلاح الجميع حزين يتساءلون أين أنا يبحثون عني بكل مكان.

تاليا بحالة يرثى لها بعد أن ظهرت الحقيقة أمامها صامتة تمامًا رافضة كل شيء تعيش تأكل كي تعيش فقط أخذ أبي منها كافة طرق التواصل مع الآخرين لم تمتلك هاتفًا أو جهازكمبيوتر.

مؤمن يبحث عني بكل مكان وأخيرًا اهتم بوجودنا بعد ما حدث لنا بعد أن تفرقنا تمامًا.

تحجرت عين أمي من البكاء كما أصيبت بجلطة من شدة الحزن على غيابي.

صلاح حزين نادم على كل ما حدث منتظرًا حصاد قسوته وجحوده على أخته الوحيدة والجميع لم يشك بلحظة أنني بحوزة عماد رغم أنني لو كنت مكانهم لكان أول شخص أشك به

*****

وببيت معاذ اشتعلت النيران طلّق والده والدته متهمها بالتقصير بتربية ابنها.

ترك المنزل لهما تجلس هي ودعاء وحدهما دون رجل تدمر كل شيء فالقسوة لا تولد سوى الانهيار وانهدام الصرح فوق رأسنا

*****

ذهبنا لعماد معًا كي نذهب لنأخذ نتيجة عينة التحليل وكانت النتيجة غير متوقعة بالنسبة لنا تمامًا.

أخذ معاذ هاتف عماد واتصل بمنزله أجابت دعاء وحين سمعت صوته كادت الفرحة أن تتطاير من صوتها وهي تقول:

_معاذ حبيبي يا أخي هل أنت بخير؟

بكى قائلًا :

_بخير أختي كيف حالكم

قالت بحزن:

_طلق أبي أمي وترك لنا المنزل أخاف ليلًا من أي صوت خارج المنزل رغم قسوة أبي أنفاسه كانت تشعرني بالطمأنينة أخشى أن تتعب أمي بأي لحظة ولن نجد أحدًا يساعدنا أخشى أن نموت دون أن يسأل أحد عنا.

تنازل عن سخطه متناسيًا حقه:

_سأعود للمنزل وأصلح كل شيء لا تقلقي أختي والآن سآخذ هاتف حمزة صديقي وأبتاع خط محمول أرسل لكِ رقمه على هاتف أمي

أعطت الهاتف لوالدتها لكنها لم تنطق بكلمة سوى سؤال لولدها وتنهيدة تحمل آلاف الكلمات:

_هل أنت بخير وسعيد الآن؟

انكمشت جبهته وبقهر:

_لست بخير أبدًا لكني سأعود إليكِ أمي .

لاحظ عماد انفعالاته فقرر أن يذهب مع معاذ لوالده مقر عمله كي يصلح ما أفسدته قسوته وتربيته الخاطئة.

كما أخذ وعدٍا منا أننا سنذهب لمصحة كي نتعافى من الإدمان رغم أننا لن نتعاطى مخدرات بشراهة لقلة المال معنا جاء هذا بصالحنا كي لا ننجرف مع هذا التيار اكننا حقًا بحاجة إلى إعادة تأهيل للحياة وإصلاح ما أفسده الآخرون.

*****

اجتماع مغلق جمعني مع أبي وعماد.

في البداية كان من الصعب أن يستجيب أبي للجلوس مع عماد لكن حين أخبرناه بنتيجة التحليل وأعطيناه نسخة منها نسى كل الخلافات وجلس يعتذر له عما بدر منه فالعناد أخفى عن قلبه الرحمة وجعله يقسو على أخته لم يتوقع قط أنها تتزوج بهذه الطريقة وتخرج عن طاعته بعد أن أفنى حياته بتربيتها وتمنى لها شهادة كبيرة وحياة جميلة حزن حين أصرت على الزواج من عماد لكن تسبب العناد بخسارتها للأبد.

قبل أبي يد عماد ورأسه معتذرًا له عما بدر منه فاشترط عماد أن يزوجه والدي تاليا في هذه الحالة فقط قد يعوض له فقد زوجته وابنه أخبره والدي أن فرق السن بينهما كبير جدًا وطلب أن يترك الأمر بيد تاليا إن وافقت لن يقف مجددًا بطريق إسعاد حبيبين.

وكانت المواجهة بيني وبين والدي لأول مرة نتحدث معًا بصدق طلبت منه أن يسمعني أولًا ثم يتحدث كما يريد:

_أبي أعلم كم تحبني لكنني لم أجن من حبك سوى الألم مجرد كلمة من فم إخوتي جعلتني أتزلزل ما يقارب عشرين عامًا لن تهتم بشأن نفسيتي أو تحدثني كرجل كان كل ما يشغلك هو كيفية امتلاكي وكأنني قطعة من الأثاث أحبك كثيرًا وكنت أدعي بكل لحظة أن تكون أبي الحقيقي واستجاب الله لي لكنك لم تتعلم مما حدث طيلة العمر تعاملني أحسن من إخوتي وتميزني عن مؤمن تقلل من شأن أختي وتضربها فجعلت منها شخصية هشة انكسرت مع أول تجربة مرت بها لم تفكر ماذا نريد كأبناء ليس كل ما نحتاجه هو الطعام والشراب والملبس فاحتياجاتنا أكبر كثيرًا حضن صادق يعوضنا عما نهابه من الحياة كان يكفينا لكنني لن أنكر أنك جعلتني أنجح بحب إخوتي وهم أيضًا أحبونني لكن مؤمن وتاليا بينهما علاقة روحانية فهي تحبه أكثر مني كثيرًا والسبب بكل ذلك هو أنت بحبك لي وتفضيلي عليهم.

أبي: هل أنهيت حديثك حمزة؟

_نعم أبي

قلت ذلك وأنا أهز رأسي وألف ذراعًا حول الآخر.

فقال هو بعد أن تنهد وأخذ نفسًا عميقًا:

_أنت محق بكل كلمة لكنني كنت أكفر عن ذنبي ظنًا مني أنك ابن ورد أعوضك بحناني عما بدر مني بحقها وكأنني أرسل لها إشارات وأترجاها أن تسامحني كلما أخذتك بين ذراعي شمتت رائحتها وشعرت بروحها تطوف حولي حتى أدهم كان على يقين أنك ابن ورد وعماد جميعنا سوى والدتك هي فقط كانت متأكدة أنك ابنها، الداية كانت لا تعلم من منكما ابننا وأخطأت حليمة بتبديل ملابسكما فارتديت أنت ملابس غير ملابسك .

اعتذر لي وأخذني بين ذراعه وهو يهلل ويتصل بأمي فرحًا:

_حمزة ابني حمزة ابني وليس ابن عماد

وكأن الخالة صفاء كانت كبش فداء خشي عماد أن يخسر آخر ذرة احترام لدى أدهم لو علم بعلاقتهما وكانت حياتها هي الثمن مسكينة هي خسرت كل شيء زوجها وعمرها وعماد هو المسؤول .

*****

اتصل عماد بوالد معاذ طلب منه أن يقابله جلسنا على مقهى وأعطى لهما عماد درسًا بتربية الأولاد وكيفية التعامل معهم وأصلح الوقت كل شيء بينهم.

عادت أسرتهم سعيدة محاولًا والده إصلاح طبعه القاسي وتراجع أبي عن تدليله الزائد لي.

أخذنا عماد لمصحة نفسية احتجزنا بها لفترة شهرين ثم تعافينا.

خرج أدهم من السجن وعاد من جديد للحياة محاولًا استعادة ابنه الذي سافر إلى خارج البلاد هربًا من وحدته.

تزوجت تاليا عماد بزفاف بسيط بحضور أسرتنا وحليمة فقط .

مؤمن يستعد لزفافه بعد أن انتظم بالعمل أما أنا فكلما ابتعدت عن ظنوني أعود لها وأفكر من جديد وكأنني مريض بالشك أحببت دعاء أخت معاذ لكنني متأكد تمامًا إن والدها لن يوافق على زواجنا.

ومع أول لحظة يأس شعرت بها أمسكت بسيجارة وضعتها بفمي وكأن هذه اللعنة لن تنتهي أبدًا وها أنا طيف إنسان تمنيت أن أكون إنسانًا كاملًا فأصبحت نهاية مجرد طيف لإنسان.

تمت